سلسلة القصة المصرية القصيرة (٢)

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

جار النبي الحلو

القبيح والوردة

القبيح والوردة

تصميم الغلاف والاخراج :
مكتب الفنون وبحوث الاعلان « عرب »
مهندس أحمد بهاء الدين وشركاه

حقوق النشر محفوظة لدار شهدى للطبع والنشر

القصة المصرية القصيرة

- ٢ -

القبيح والوردة

قصص قصيرة

جار النبى الحلو

دار شهدى للنشر
١٩٨٤

القبيـــح والوردة

النهر رائق ·· الشمس تدفئه ·· وهو ينساب فى هـــدوء وطيبة ، وما هذه القوارب غير لعب صغيرة ·· والنهر واسع ·

النهر رائق ، لا طمى ، ولا أعشاب ، والشمس تناثرت قطعا صغيرة فى مساحته الواسعة ·

ونحن على حـــافة النهر نتصبب عرقا ، يحيى كان يلهث ، والعرق عى جبينه ، والتراب حط على شعره الأكرت · النهـــار أصبح طويلا على يحيى ، هو فى انتظـار الليـل ·· حيث البنت العرجاء فى انتظاره ·

الشمس حامية ، وحذائى ضاق على قدمى ·· وحذاء يوسف من البلاستيك الأســود اللميع ، انحنى يوسف على ســور الجسر الحديدى ، بنطلونه فى لون الخضرة ، وعيناه فى لون الخضرة أيضا·· هامت عيناه بالنهر الذى يحبه أكثر منا جميعـــا · قال يحيى أنه جائع ، وأن الرجل الذى مثله فى حاجة الى صحن كبدة خاصة فى ليلته الأولى ·

همس يوسف :

ـ أنظر ٠

سألته :

ـ ماذا ؟

قال :

ـ الوردة ٠

وردة بيضاء مغسولة بماء النهر ، وتتماوج فى بطء ٠٠ وثقة ٠٠ وجمال ٠ عندنا نهر نحبه ونخافه ، وبه وردة أحبها يوسف ٠

ويوسف يحب أشياء كثيرة ، ويأتى لنا فى الحارة بصور ملونة ، ندخل بيت عم سراج ـ الذى به فناء كبير ـ نجلس ونتفرج على الصور ٠٠ صور جميلة ملونة لأطفال لا نعرفهم ، غير أن يحيى يسخر منه ٠٠ ومنا جميعا ، ويخرج من جيبه قرشا ، ثم يفره فى الهواء عاليا ٠٠ ويقول هل تلعب يا يوسف على هذه الصورة التى سأمزقها بعد ذلك ؟

ينكمش يوسف ، يتحول لون وجهه الأبيض الى حمرة قانية ، وتبدو شفتاه مثل الفراولة ٠٠ يهز رأسه خجلا ٠٠ ويشير بأصبعه لا ٠٠ ويقول يحيى : من ينازلنى « الكراتيه » يرفض يوسف ٠٠ ونضحك نحن ، ويتبرع أحدنا بأن ينازل يحيى ٠ نحن جميعا أبناء حى واحد ، والناس يستعيذون بالله منا حين ندخل الحى ، ويحزنون من أجل يوسف الحبوب الهادىء ، والذى تجذبه النسوة خلف أبواب الدور ، ويفر هاربا كبنت ٠

ويحيى مكروه من أهل الحى ، هو الأسمر الدميم ٠٠ صاحب

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الرأس المدورة والشعر الأكرت ·· ويقولون عنه : القبيح ·· ابن القبيح ·

ـ ابن الوز عوام ·

هكذا كان الأب رحمه الله ، يخرج على الناس بسكين ، يخرج عليهم عند الجسر ، في الليالي الباردة والساكنة ·

يحيى بعينين واسعتين يرعبنا ، ولكنه يمدنا بالجراة والقوة حين ننازل أبناء الأحياء الأخرى ، وهو الذى علمنا السرقة ·· والهروب من الشرطة وتدخين السجائر ، وأماكن حمامات البلدية، وهو الذى يسهر بنا كل ليلة فى فناء بيت عم سراج ، فى هذا الفناء المهجور ·· الواسع ·· الذى به نخلة نجلس تحتها ·· ويركن يوسف بظهره عليها ويستمع الينا فى هدوء ·

● يحيى يتحدث عن أمه والبنت العرجاء

بالأمس نادت أمى على برفق ·· وحنان ·· فعرفت أن هناك شيئا ما سوف افعله لها ، وأنا ـ كما تعرفين ـ كثيرا ما أضحى بنفسى من أجلها ، فأحيانا أسرق لها الطماطم والباذنجان ، وأحيانا يضربنى الباعة ولا أستطيع أن أسرق لها أى شىء ، فتنظر لى بعينيها الكليلتين ، وتقول :

ـ خائب ·· رحم الله أباك ·· كان يهد الدنيا فى دماغ من لا يطعمه شيئا ·

ثم تزحف على الأرض متكئة على يديها وذراعيها ، وتقعد على عتبة الحجرة تتأمل فى الحارة الضيقة ·

وبالأمس نادت على بحنان ، وكنت راجعا منذ قليل من دار

عمكم « على » أتضحكون ·· لا يهم ·· ان ابنته العرجاء جميله رغم كل شيء ، أنها معجبة بشعرى الأكرت ، وتداعبنى ·· وتجعلنى منتشيا ، واشعر بأشياء لن تشعروا بها الا بعد عشر سنوات أيتها الكلاب الصغيرة ، ولقد أعطتنى « فرح » ابنة عم « على » خمسة قروش أطبقت عليها وفررت من الدار فاصطدمت بعم « على » شخصيا فضحك حين رآنى ·· وقال :

ـ انزل استحم فى النهر مرة فى حياتك ·

ضحكت عليه ·· وسخرت منه ·· وقلت له فى نفسى : يا رجل يا جردل ·· ان ابنتك العرجاء متيمة بى ، ولو طلبت منها جنيها لخلقته لى من تحت الأرض ·

وسرت لا ألوى على شيء · فقد كنت سعيدا ، ذلك لأن «فرح» أحاطتنى بذراعيها وحين لامستنى بنهديها سرت بجسدى كهرباء ، وكدت آكلها ·· المهم أننى لم أضرب طفلا فى الحارة ، ولما رآنى فهمى بائع الحبوب جرى ووقف أمام حبوبه ·· فضحكت من أعماقى ·· وقلت لاطمئنه :

ـ كيف حالك يا عم فهمى ؟

وتركته ، وتمنيت فى هذه الليلة أن أرى الولد يوسف لأشترى منه صورة ملونة ، وأعلقها على الحائط ـ مثلما يفعل هو ـ ولكننى أريد صورة رجل يلعب « الكراتيه » ويكون طائرا فى الهواء ، غير أن يوسف ينام من المغرب كالفراخ · ولم أشأ أن أدخن سيجارة · ولد يا حسن هل معك سيجارة ·· ؟ طول عمرك رجل ·· هل معك كبريت يا ولد يا حسن ·· ؟ طول عمرك امرأة · المهم ·· قلت ماذا أفعل ·· كنت جائعا ·· ربما أجد بالحجرة لقمة خبز ·· أو بقايا فول · أمى رغم فقرنا امرأة حريصة ، فدائما ·· وحياة النبى المرسل ·· دائما تجد عندنا فول أو قطعة جبن ·· ودائما عندنا بصل ·

لما دخلت الحجرة رمشت أمى ٠٠ ثم نادتنى بحنان ٠٠ فقلت لا بد أنها تريدنى فى شىء ما ٠ اتجهت اليها فى تردد ٠ قلت :

ـ نعم ؟

أمى رغم أنها مريضة وفقيرة فهى حنون ، ورغم أنى أضربها كثيرا ـ من غلبى ـ الا أنها تحبنى ، وأنا حين أريد رضاءها أسرق لها « العجور » فهى تحبه كثيرا ، أمسكتنى من يدى ، كانت يدها شديدة الدفء ٠٠ ثم قالت همسا وكأن أحدا غيرنا بالحجرة ٠٠

ـ ينورها لك يا بنى ٠٠ أريد أن أستحم ٠

وأنتم تعرفون حكاية الاستحمام هذه ٠٠ كانت « فرح » تعبدنى ٠٠ وهى ابنة عم على ماسح الأحذية ، كانت تأتى وتحميها ، وحين أفشى أولاد الحرام بالسر الى أبيها ٠٠ ضربها بفردة حذاء حتى سال الدم من شفتيها وكاد يفقأ لها عين ٠ ومن ثم لم تعد « فرح » تجىء ٠٠ ولجأت أمى الى الجيران وفى كل مرة تحميها امرأة ، وأمى تكره القمل جدا ، ولكنها لا تستحم رغم هذا الا كل عدة شهور مرة ، هرشت فى رأسها ٠٠ سألتها :

ـ كيف أحميك ؟

ضحكت وقالت :

ـ يا بن المرة ٠٠ هات الماء من النهر ٠٠ ثم سخنه ٠

ونزلت الى النهر ، وحملت برميل المياه على كتفى ٠٠ وأهل الحارة سخروا منى ٠٠ وعرفتهم بالواحد ٠٠ وسوف أجزيهم على أقوالهم ٠

لم يعد للسجاير طعم .. أف .

كانت أمي في الطشت غيرها في الملابس .. الجسد ضئيل .. ضئيل يرتعش .. والجلد مثنى .. وعلى الجسد وسخ غريب .. انتابتني رعشة في البداية ، وقفت وراءها .. وبالكوز أخذت أصب الماء على رأسها ، وكانت تحرك يدها التي أكلها الروماتيزم بصعوبة .. ثم قالت :

ـ اغسل رأسي .

نزلت المياه سوداء .. ثم أخذت أمر بالليفة الخشنة على ظهرها المعظم .. ثم .. ثم .. واجهت أمي من الأمام ، كانت عيناها في هذه اللحظة فرحتين .. لكنهما تغوصان في جمجمة ، وما كنت أظن ان شعر أمي بمثل هذا البياض ، ملعون يا أبي .. لقد عاشت أمي في فقر غريب ، وأنت الذي كان يملك سكينا حادة .

شعرت بالدوار .. هذا الجسد الضامر .. وهذه العروق النافرة ، مددت رجليها بصعوبة حتى أغسلهما دعت لي بزيارة النبي ..

أحسست بالأختناق « فرح » لو أنها استحمت .. لو تمددت .. لو نامت .. لو أن يدي راحت تتحسس هذا الجسد النضر .. الاختناق .. وابور الجاز يشع دفئا .. عينا « فرح » تشعان نورا غريبا .. وأنفاسها .. آه .. وابور الجاز خانقا .. خانقا ..

صفقت الباب ورائي بشدة .. وجريت كالمسعور الى « فرح » في طريقي ركلت أخوها الصغير .. ودخلت الدار ، وكانت وحدها .. ويبدو أن شكلي كان غريبا ، فقد شهقت حين رأتني أتصبب عرقا .. تقدمت منها .. اعتصرتها في حضني ، ارتجفت

.. نامت كأنثى . وعرفت أن نهديها غير ثدى أمى تماما .. وأن جسدها شاب .. واعدكم لن تفلت من يدى يوما واحدا .

أنا القبيح أريد أن أنزل النهر غدا .

● يوسف يتحدث عن اللعبة والوردة .

كانت اللعبة فوق الدولاب الخشبى ، وعلى الحائط صورة كبيرة ملونة لوردة بيضاء ، وأنا أجلس فى صمت بجوار أبى الكفيف .

أنا كما تعرفون لا ألعب « الكراتيه » وأحب السينما .. وأحب ابنة الجيران ، وأخاف من يحيى .. لا تسخروا منى .. أنا أخافه وأحبه .. ولا أستطيع أن أسرق مثله ، ولا أن أهزم الصبيان .. ويقشعر بدنى حين أرى البنت العرجاء .

أنا أخافكم جميعا .. وأحبكم وأحلم كثيرا بابنة الجيران .. بحق هذا القمر الجميل أتمنى أن تكونوا طيبين ، ولا تؤذون عواجيز الحى ، ان أبى عجوز .. كفيف .. وعمره طويل وأمى لا تحبه كثيرا .. وهو يحكى لى دائما عن أيام صباه ، ولعبه ، وقوته .. هل تدركون معنى الضعف والهزيمة بعد الشباب القوى .. لا أريد أن تعاكسوا أبنة الجيران .. أنتم تعرفون أنها فى المدرسة الثانوية ، وربما أصبحت طبيبة تعالج الحى كله بلا نقود .

هل تحبون أن أكمل كلامى ؟

كنت أود أن أحكى لكم عن اللعبة ـ التى كانت فوق الدولاب الخشبى ، العسكرى فوق الحصان الأبيض ، السيف مرفوع يعلو الرأس ، العسكرى له رأس يحيى وشعره خشن .

لو أن يحيى ركب هذا الحصان لدار به فى البلد ، يقفل

الحوانيت .. ويقطع الكهرباء .. ويخطف البنات .. بل ويقف بقدميه على ظهر الحصان ويمشى فى الشوارع ضاحكا .

وأنا لا أستطيع أن أفعل هذا يا يحيى .. بل أنك شجاع .. أليس كذلك ؟

وماذا لو ركبت أنا الحصان .. ؟

أضع فوق ظهره بردعة حمراء وفى عنقه رشمة فضية ويكون الحصان بنيا لامعا ، أسير على مهل .. وأتابع النهر ، والمراكب المسافرات بعيدا ، والشمس الجميلة . وأسير تحت النخيل العالى .. ويسير الحصان بدون ضجة ، وأريد من الله أن يعيد بصر أبى اليه حتى يرانى .. وأنا الذى رسبت فى الابتدائية ثلاث مرات قد استطعت أن أركب الحصان البنى ، ثم أربط الحصان فى سور الجسر ، ويصهل قليلا فى فرح .. ثم استلقى على الحشائش الخضراء ، استلقى وأكون جذلا .

عندى صورة ملونة جميلة لبنت دقيقة الحجم . ولها شفة رقيقة ، وهى تنام فوق الحشائش باسترخاء وطفولة . فى الليالى التى لا أنامها ، استلقى بجوار البنت الرقيقة على الحشائش .. وأحلم .. أحلم معها بطفل جميل يشبهها ، غير أن البراغيث لا تكف عن مضايقتى . أنتم تعرفون أن حجرتنا بها صراصير وبراغيث لا أعرف لم تهوى حجرتنا بالذات . وأنا صغير .. اشترى لى أبى لعبة العسكرى والحصان . أيام كان يبصر مثل جميع المخلوقات . وأنا صغير ضربتنى أمى ، ولا أستطيع أن أنسى ، لقد ضربتنى حين حاولت أن أنزع الورقة المفضضة من فوق العسكرى قالت أن لعبة مولد النبى لا بد أن أحفظها لعام قادم .

ومرت كل سنوات عمرى واللعبة فوق الدولاب .. وكل ليلة كنت أحلم أن ألعب مرة أخرى بالعسكرى والحصان .

كل ليلة أحلم ·· حتى كرهت هذه اللعبة ·

لم تعد اللعبة بيضاء ·· أكل الذباب وجه العسكرى ·· وأصبحت اللعبة شديدة السواد ·· وكلما زارنا أحد ـ وهذا لا يتم الا نادرا ـ يشير أبى الى اللعبة ويقول :

ـ لعبة يوسف ·· اشتريتها له من طنطا ·· زمان ·· أيام النظر والصحة ·

ويمد أبى يده يتحسس الدفء من الموقد ، ويخرج الدخان ، وتدمع عينى · هل تكرهون رائحة الدخان الخانقة ؟ ، هل تكرهون القمل ؟ ·· هل تحبون الطعام الذى يشبع ·· ؟

ذات ليلة خلت منكم ، فكرت أن أعمل فى مصنع ·· على شرط أن أنام بلا جوع ·· ترددت ورحت أتجول فى ميدان المحطة ونمت على دكة خشبية ، وحلمت بالقطار يسير ويغنى : تك تك تك ·· تك ·· وكانت البنت الصغيرة تضحك ·· تضحك ·

ولما استيقظت ـ وكنا فى الليل ـ ولمحت المخبر ·· هربت الى السكة الحديد · قررت أن أراكم هذه الليلة ، وأن أشكى لكم همومى · تعرفون أننى منذ أيام اشتريت أصيصا لأزرع فيه الورد ، غير أنى لا عرف كيف يشترون الورد ·· ؟ ولا من أين يشترونه ·

ولكن هذه الوردة المعلقة على الحائط ·· تشدنى اليها ساعات طويلة ، يا للسحر الجذاب الذى تنطق به · اننى أريد أن أضع الوردة على الشباك وأقوم فى الصباح الباكر وأسقيها ·· وأرعاها ·· وأحبها ان الوردة تكبر ·· وتكبر ·· والعسكري والحصان ـ هذه اللعبة السخيفة ـ تتسخ ·· وتتسخ نهضت من

جوار أبى فزعا عصبيا ، وكأن أبى قد أحس بالسخونة التى تغمرنى ٠ سأل :

ـ يوسف !!

مددت يدى ٠٠ أنزلت اللعبة من فوق الدولاب ٠٠ ثم ضربتها بالأرض ، فانكسرت ٠٠ تناثرت ، رأس العسكرى تدحرجت حتى قدمى أبى ٠ والحصان لم يعد له وجود ، ونهضت الوردة قوية ٠٠ بيضاء ٠٠ حمراء ٠٠ قوية تفتحت ، غمرتنى برائحتها العطرية ٠٠ غضب أبى ٠٠ ولا أعرف كيف سيفهم أن الوردة البيضاء جميلة ٠٠ ورائحتها جميلة ، وأن هذه اللعبة متسخة وبالية ٠٠ ومرتع للذباب ٠٠ هل تسمعون الوردة ؟ انها قادمة مع النهر ٠٠ انها تنشد فى فرح ٠٠ فرح بلا نهاية ٠

***

النهر رائق ٠٠ وعيوننا ألهبتها شمس الصيف ، النهر يمضى بطيئا حاملا على ظهر موجه وردة بيضاء ٠٠ شهق يوسف :

ـ الوردة ٠

الوردة لم تعد فى الحلم ، ولا على حائط الحجرة فى صورة ها هى قادمة كبيرة ٠٠ ها هى تتهادى ٠

هتف يوسف :

ـ أريد الوردة ٠

وكنا خمسة صبية على حافة النهر ، وليلة أمس كنا فى بيت عم سراج ، وأمس كف يحيى عن ضرب الأطفال وسهر يوسف خارج المنزل ٠

وفي هذه الظهيرة هبطنا من فوق الجسر ·· وجلسنا على حافة النهر ·· فالتعب قد هدنا ·· للنهر نسمة ·· وللوردة رائحة ·

وأصاب يوسف الجنون بالوردة ·· وقرر يحيى أن يغتسل ·

نظر يحيى الى بنطلونه الباهت ، ودعك قفاه بيده ، وقال :

ـ لا بد للرجل أن يستحم حتى لا تتأفف المرأة من عرقه ·

سكت ·· ثم مال على قدمه ·· وفك رباط حذائه الكاوتش المتآكل من الأمام · نهض ·· ضغط على شفته السفلى بأسنانه الصفراء ، ثم سألنا :

ـ من يستطيع أن يسبح ويأتي بالوردة ؟ النهر واسع ·· والشمس قاسية ، وما نزلنا النهر في هذا العمق ·

أردف يحيى :

ـ انزل يا يوسف ·

انتاب بقية الصبية ، خوف ، هل يختار يحيى واحدا ليرميه في النهر ؟

تراجع يوسف بخجل ـ ما تعلم يوسف السباحة بعد ـ ضحكنا جميعا ·· ولم نشأ أن نسخر من خجله ، تقدم يحيى يسأل في زهو ؟

ـ من يستطيع ؟

تراجعنا قليلا ·· وابتلت صدورنا وجباهنا بعرق غزير ، النهر عال ، ولا نعرف عمقه نحن نستحم حيث يضيق النهر ··

وفى الترع الزاحفة وسط الغيطان .. رمشت عينا يوسف ، وأحمرت وجنتاه ، خلع يحيى البنطلون ، وكانت عيناه تلتمعان فى فرح .. علت زقزقة العصافير فوق الشجرة .. والعربات تمرق على الجسر بلا صوت .. وكان يحيى يبتسم فى خوف ، تجمعت البسمة فى ركن شفته .. ثم خلع بقية ملابسه ، ضرب على صدره العارى بيديه هرش شعره الأكرت .

ـ سأذهب لـ « فرح » نظيفا .

وما هذه القوارب غير لعب صغيرة .. وما يحمل النهر الا ماء ثقيلا .

رجع يحيى للوراء .. تقدم وهو يجرى .. النهر فتح له ذراعيه .. النهر واسع .. قفز يحيى .. فرح الماء به وعمل ضجة شديدة .. ورفع يحيى يده لنا .. وابتسم .. تقدم يوسف من النهر .. كاد ينزلق .. رجع مشدوها . يحيى يندفع باتجاه الوردة ، يشق النهر بلا خوف . مد يده الى الوردة .. تراجعت الوردة .. ضرب الماء بقدميه ، خفقت قلوبنا .. الوردة كبيرة بيضاء .. والموج يجرفها .. ويجرف يحيى معه .. يحيى بعيد .. نظر للخلف لم نر عينيه .. بصق .. تمخط .. أمسك الوردة .. ترك الوردة .. تمخط ثانيا .. لم يستطع أن يصلب نفسه .. اختفى من على السطح .. ظهر مرة أخرى .. رفع يده اليمنى .. آه .. يحيى سيغرق .. انه يستغيث لم نسمع صوته .. رفع يده فى عصبية .. حاول السباحة .. انقلب على جنبه .. على ظهره .. اختفى .

صرخ يوسف :

ـ يحيى .

ظهر يحيى .. والشمس حارقة .. حارقة .. والماء ثقيل .

ـ يحيى ٠

لم يسمعه ٠٠ ولم يسمعنا ٠٠ ولم يرنا ٠

ها أنت فى منتصف النهر ٠٠ وها نحن على الشاطىء ٠٠ فى انتظار الوردة ٠٠ زعق يوسف فزعا ٠٠ وانتفضت منه العروق ٠

ـ يحيى ٠

صرخ يحيى حتى سمعناه ٠٠ صرخ فى خوف وفزع ورعب :

ـ آه ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

وكانت يده اليمنى مرفوعة عالية ، تشنجت أصابعه ، اختفت اليد المعروقة ، وسكنت المياه ٠٠ واختنق كل شىء فى حلوقنا ، وعاد النهر أشد سكونا ورهبة ، ارتمى يوسف فوق ملابس يحيى وتشنج فى البكاء ٠

البيـــــوت

الأشياء بالداخل صامتة ، يلفها الحزن ، العيون منكسرة · عفش البيت كوم صغير ، الحجرات الضيقة خالية الا من رائحة الجبن القريش والأنفاس القديمة · على الحيطان كتابة بالطباشير · الفرن قابع تحت السلم الخشبى وبقايا الحطب المكسر لا تزال فى البيت من يوم الخبيز الفائت ·

فتحت البنت زينب الباب · زحف الضوء حتى أقدام الأم الجالسة أمام العفش ·

قالت فى صوت خافت مشيرة بأصبعها النحيف الى الخارج :

ـ العربجى ·

العربة الكارو ذات الحصان الأبيض العجوز أمام البيت ·

ـ اجمع كتبك يا مصطفى ·

أدرك مصطفى فى هذه اللحظة فقط كل ما حدث · تأكد من كلام أمه · قالت بالأمس ·

ـ آخر أيامنا فى البيت ٠

بيوت القرية متعددة الأشكال ٠٠ بيت العمدة ٠٠ كبير ٠٠ مبنى بالطوب الأحمر ومكون من طابقين بالطابق الثانى بلكونة ونوافذ البيت الزجاجيه متربه ٠ أمام البيت الكبير حديقة صغيرة بها بعض الأشجار الجافة (ذلك لأن العمدة له أراض مزروعة كثيرة وليس فى حاجة شديدة الى الحديقة) ٠

وهناك أيضا البيوت الطينية الواطئة ، المنكفئة فوق الأرض نوافذها قطع من الخشب الصغير ٠٠ أو من أجولة قديمة متآكلة ٠٠ بيوت مظلمة يعيش فيها أهل « دمرو » كلهم ٠ أما هذه البيوت التى يؤجرها الأب عبد المنعم وغيره ٠ بيوت ذات طابع خاص ٠ بيوت انجليزية الطراز ، سقفها القرميدى الأحمر بشكله الهرمى تراه وأنت قادم من سكة الأتوبيس ٠

قال الأب وما زال ساندا رأسه الى الجدار :

ـ يعنى ننام فى الشارع ؟

والأم النحيفة قامت لتجمع اشلاء الأثاث ٠ لم تنس شيئا واحدا أعدت كل شىء منذ الصباح حتى تنقله للعربة الكارو ٠ غير أنها ما زالت تبحث فى كل الأركان عن « الكنكة » النحاسية ٠ صعدت البنت زينب الى فوق ٠ وضع مصطفى كتاب القراءة والمحفوظات فوق كتاب الحساب ٠ والحساب فوق سلاح التلميذ ٠ وبعض الكراريس مثنية الأطراف ٠ وصورة للزعيم الخالد ٠

نزلت البنت زينب من على درجات السلم الخشبى القائمة وسط البيت الانجليزى ٠ وكانت تدب بشدة ـ تتمنى لو تكسر كل درجة من السلم ـ شدت العصبة الزرقاء المتسخة فوق رأسها ٠

قالت :

ـ لم أجد الكنكة ٠

نهض الأب فى بطء شديد ٠ وكان ظهره مقوسا ٠ صعد الى الطابق الثانى لا يلوى على شىء ٠

فى الحجرة الضيقة كم تناثرت الأحاديث ٠ واحتضنت الحزن ٠٠ الفرح ٠٠ وفى ليالى شهر رمضان لا تنقطع الأحاديث ولا الدخان المتصاعد من الجوزة حتى وقت السحور ٠

حسـد الناس عبد المنعـم والآخرين على هـذه البيوت التى ما كانوا يحلمون بها ٠ ولا كانوا يبنونها لو عاشوا مئات السنين ٠ وكان أبناء العمدة يحسون أن هؤلاء الفلاحين نفخوا صدورهم منذ أن أغلقوا على أنفسهم بابا خشبيا ٠

ولكن الباب الآن سيفتح على مصراعيه حتى يخرجوا بعفشهم الى الخلاء ٠

قال سيد أحمد زاعقا ٠٠ ساخرا : :

ـ طبعا ، لماذا ننام فى مثل هذه البيوت ؟

الحجرة الفوقانية خالية تماما ، الهواء يصفر فيها ٠٠ سقفها الخشبى النظيف ما زال لامعا من أيام الانجليز ٠

قال أبو مجاهد :

ـ وحياة ربنا العمدة بيغير من بيوتنا ٠

بالحجرة نافذتان كبيرتان ٠ والغيطان تبدو مشققة ، الطريق

أمام البيت مترب · والترعة الصغيرة التى تشق قلب « دمرو » ما زالت جافة وحمار أبيض هزيل يسير فى بطء وراء ولد صغير · نحيف ·

قال الأب معذبا نفسه :

ـ ٢٥٠ جنيه ·

قال لامرأته ـ وكان الناموس يأكل الوجوه :

ـ ٢٥٠ جنيه ·· نبيع الحمار ·· والنحاس ·· والفرش ·· ولا نكملهم ·

لكن سيد أحمد الذى نال قسطا لا بأس به من التعليم بالمعهد الدينى قال :

ـ نرسل شكاوى للوزارة ·

تهللت الوجوه ·· لمعت العيون السود ·

الوزارة ··

وبدأ الحلم فى أن يكف التهديد عنهم · كحل الأمان جفونهم ليالى عديدة · فى جوف البيوت الانجليزية الطراز كانت الأنفاس تدفىء الحجرات الضيقة ·· تتمدد الأجساد العريانة ·· الضئيلة ·· المنهكة ·· وتتلاحم ·· تهمس بالأمان · والحمد لله على لقمة العيش ·· وليمت الحاسدون بغيظهم ·

ويغمض الأطفال عيونهم فرحين بالبيوت التى تلمهم تحت السقف الواحد ·

وتسهر الجوزة فى أيدى الرجال بمقهى عبد الستار حتى آخر

الليل · والجميع اطمأن الى موضوع البيوت وان مجرد توقيع الجميع على عرضحال تمغة فيه كل الحل ·

قال سيد أحمد :

ـ والأيجار المتكدس فوقنا ·

رد عبد المنعم :

ـ على الأقل كل منا عليه عشر شهور ·

قال صبحى عوض الأهتم الأسنان :

ـ نخلق يا عالم ؟

ثم جلس فوق الكنبة الخشبية وأخذ يداعب حجر الجوزة بأصبعه الأصفر النحيف · قال بعد أن جذب نفسا عميقا :

ـ طوبى للمساكين ·

سأله عبد المنعم :

ـ يعنى ايه يا صبحى ؟

فسرها صبحى عوض ثم أعقب ذلك بضحك متواصل حتى دمعت عيناه ··

فى الحجرة تيار الهواء يتدافع من النافذتين المتقابلتين · والأب عبد المنعم جلس القرفصاء · أخذ ينبش بأصبعه فى الطين الناشف فوق قدميه الغليظتين · ردد فى همس :

ـ طوبى للمساكين ·

الطين الناشف يتساقط ··

حط الذباب فوق الكراسى الجريدية والموائد بالمقهى ·· أغلق عبد الستار مذياعه الترانزستور وكان المقهى كئيبا ·· أقسم عبد المنعم أنه لا يحس للدنيا طعما · لم يسمعه أحد ·· كان كل منهم غارقا فى الهموم ·

فى النهاية ستباع البيوت فى المزاد · ولا مفر من تسليم البيوت ·

قال عبد الستار وهو ينفخ فى غاب الجوزة :

ـ ما العمل ؟

تحسر الجميع ··

ـ ما باليد حيلة ·

قال أحدهم :

ـ العمل عمل ربنا ·

رد عبد المنعم :

ـ العمل معروف ·· المزاد ··

ما أن خرجت كلمة المزاد من فم عبد المنعم حتى تولد الخوف القديم ·· الخوف من النوم عند الأقارب والجيران حتى يصنعوا أعشاشا لينامو فيها ·

قال أبو مجاهد :

ـ ملعون يوم تأجيرها ·

ويومها ·· يوم استئجارها من الحكومة ·· كانوا فرحين لأنهم

سيسكنون البيوت التى حلموا بها كثيرا ·· وكانت قديما ـ أيام الاحتلال ـ بيوتا للانجليز الذين يشرفون على أراضيهم فى الريف المصرى · قال الاب عبد المنعم أنها فرصه أن يسكنوا بيوتا نظيفة ذات طابقين وقائم فى وسط البيت سلم درجاته خشبية · وانتهز الفرصة كل من سيد أحمد وحسنين أبو مجاهد ·· وآخرون · التقطوا البيوت الانجليزية المتناثرة فى أنحاء « دمرو » والتى ما تزال تحتفظ بأسوارها القديمة ·

ـ الايجار جنيه وربع فى الشهر ·

همس سيد أحمد لعبد المنعم :

ـ الحمد لله ·· هدية من السما ·

أخرج صبحى عوض علبة المعسل من جيب جلبابه المقلم ·· ثم قال :

ـ طوبى للغلابة ·

وبرغم ضآلة الجنيه وربع الا انه كان قاسيا عليهم · فالعمل فى الغيطان والزرع عند كل انسان باليومية لا يسد الأفواه ومن يملك قيراطين أو ثلاثة مثل حسنين أبو مجاهد كان يتململ أيضا من الجنيه وربع · والعيال فى كل بيت كومة من العظام ·· عدد كبير من الأفواه وأجسامهم العرقانة وشغل طول النهار يأكل الهدوم ولو كانت من حديد ·

عندما كسب صبحى عوض دورين « دومينو » من أبو مجاهد قال :

ـ لا يمكن الحكومة تقبل حكاية المزاد ·

لكن الحكومة ـ أيضا ـ لا تقبل أن يكون الايجار متكدسا بهذا الشكل ، ولذا يأتي المحصلون فى الشهر الواحد أكثر من مرة ٠

ـ الايجار يا بلد ٠

يدقون الأبواب ، يجلسون ٠٠ يشربون الشاى والجوزة والمعسل ويتحدثون مع الأب عبد المنعم عن زراعة القطن ويخمنون كيف سيكون مجهود الدودة هذا العام ٠٠ يتحدثون فى كل شىء ٠ عن الأحوال السيئة الصعبة ٠٠ وظروف الجمعية ٠ والحبوب ٠ حتى يصل الحديث دائما الى حمارة الأب عبد المنعم التى ماتت وفاحت رائحتها فى كل البلد ، ويضحكون دائما عند ذكر أجزاخانة الشفاء المغلقة دائما ٠٠ ولكنه بعد كل شىء يلح فى طلب الايجار ٠

ـ لا مؤاخذة يا عالم ٠٠ أنا موظف ٠

تتبرم الوجوه ٠٠ تتغير سحنة الرجل منهم :

ـ يا محمد أفندى انتظر قليلا ٠

ـ يا محمد أفندى أنت تعرف حكاية الايجار ٠

يرد محمد أفندى :

ـ الفلوس تراكمت عليكم ٠

ـ الشهر القادم ٠

يعده الجميع بأن التسديد سيكون على أكثر تقدير فى بداية الشهر القادم ، لكن الأيام والشهور عندهم واحدة لا تتغير ٠٠ نفس الأكل ٠٠ نفس الشقاء ٠٠ والنقود الشحيحة ٠

والمحصلون بعد عودتهم فى تاكسيات دمرو ـ التى يتكدس فيها أضعاف ما تحتمل ـ يبدأون فى تقديم تقاريرهم :

« الفلاحون لا يدفعون » ٠

ولكنهم أخيرا ـ المحصلون ـ ارتاحوا من هذه الحكاية بعد أن اتفقت الحكومة انهاءا لهذه المشكلة على أن تعرض البيوت فى المزاد ٠٠ والجميع من أول الاسكافى الى العمدة له حق المزايدة ٠

ولأن سكان البيوت الانجليزية يعرفون ما فى حوافظهم من نقود قرروا ان لا فائدة ٠٠ فهناك من ينتظر هذه البيوت حتى يلتقطها بأى مبلغ ٠٠ قال بعضهم :

ـ انه مكان جميل لأن تقضى عائلات الأفندية الأجازة فيه ٠

وأشيع فى « دمرو » أن العمدة سيستعمل أحد هذه البيوت كحظيرة للبهائم ٠ لكنها بالطبع اشاعة لأن المرجح أن ينتقل اليها بنفسه ٠

وفى النهاية ٠٠ ترقرقت الدموع فى العيون ٠٠ ومصمصت الشفاه ٠٠ وتحسرت على الأيام الحلوة ٠٠ والبيوت التى كانت تلمهم ٠٠ بكى صبحى عوض كالنساء ٠٠ وقال :

ـ العين بصيرة ٠٠ واليد قصيرة ٠٠

تقدمت البنت زينب فى حذر ٠٠ رأت الأب عبد المنعم جالسا ممددا فى الحجرة الخالية ٠ وأحست أن الحجرة كبيرة ٠٠ كبيرة ٠

وكان يجلس ـ ممددا ـ صامتا ٠٠ وعيناه ثابتتان فوق الأرض الحبلى بمئات الجنيهات ٠

تقدمت ·· تلعثمت ·· قالت :

ـ آبا ·· جدى حضر ·· سيحملون العفش ·

زينب شاحبة ·· كلماتها مهشمة ·· أصاب الناس السكتة فى هذه الأيام ·· الحكاية مثل الشمس فى الوضوح ·· المزاد العلنى على البيوت ·· من يستحقها يأخذها ·

ـ طوبى للمساكين ·

ـ آبا ·· حضر جدى ·· ء ··

الحجرة لا تزال نظيفة ·· والطلاء لامعا ·· لا شىء يتغير فى البيوت الانجليزية ·

قال سيد أحمد فى حسرة :

ـ سننام فى العشش يا أولاد ·

قال الأب عبد المنعم :

ـ « ان عاز الغنى شقفة يكسر للفقير زيره » ·

وكانت الخطوات فوق درجات السلم بطيئة ·· مثقلة بالحزن ·· العيال يلتفون حول العربة ·· الوسائد المتسخة ·· والمرتبة المهترئة ·· والكرسى العتيق ·· والحلل النحاسية الحمراء ·· البيت كله فوق العربة ··

ـ زينب ·· أين الكنكة النحاس ؟

نفخ الحصان العجوز ببوزه فى الأرض ·· قال العربجى :

ـ أنا نقلت عفش صبحى عوض بربع ريال ··

أخرج الأب عبد المنعم حافظته البنية ذات الثلاثة عيون والجيب أبو سستة ·· عبثت أصابعه فى الجيوب ·· نصف ريال موجود ·· قال له :

ـ توكل على الله ··

لسع العربجى حصانه العجوز بسـوطه الطويل ·· اهتزت اهتزت العربة ·· طفرت الدموع من عين الأم ·· تمخطت فى ذيل طرحتها السـوداء ·· شدت فتحية فى يدها ·· وأمسكت زينب بالصغير أحمد ·· وسار مصطفى محنى الرأس · كانت الشمس قوية ·· الجو خانق ولا سعفة نخل واحدة تهتز · وكانت الأم ·· وكان الأب ·· والأولاد صامتين · عيونهم فوق العفش الذى يهتز ·· والطريق المتعرج المترب · ولا شىء غير الحزن فى القلوب ·

البيت الانجليزى قائم ·· كما هو ·· نوافذه مغلقة ·· سيظل يصغر ويصغر حتى يختفى ·· انحنى مصطفى ·· التقط قطعة من الجير ·· عاد مسرعا الى البيت ·· كتب فوق الجدار بخط متعرج « للذكرى الخالدة ·· مصطفى عبد المنعم ·· خامسة أول » ·

الخمـــــيس

النسوة متشحات بالسواد الكئيب ·· الرجال صامتون ؛ الحمير الكسولة تسير فى تؤدة ·· والبنات يحملن « الخميس » فوق رؤوسهن « بالمشنات » · الطريق المترب الساخن يلسع الحفاة · فى « المشنات » كعك وقرص وتمر ، ســال لعاب الولد الحاج تحسس المصحف القديم فى سيالة الجلباب المتسخ ، أسرع الخطى حتى يلحق بأبيه الشيخ عبد العال ·

النسوة صفر الوجوه ·· نحيفات ، الرجال جامدو النظرات ، الشــيخ عبد العــال يحتمى من الشمس العمودية بالجبة الباهتة المرتقة ·

الطريق الى المقــابر طويل ·· شــاق ·· خارج البلد ، لكن الهمســات والأحاديث عن المرحومين ·· والحواديت ·· والبــكاء تؤنس الولد الحاج سيد ·

النسوة طوال الأسبوع ــ أمام الأفران الطينية ــ يعدون كعك الخميس ·

« رحم الله الأموات » ٠

الحاج سيد يحفظ :

« الرحمن علم القرآن » ٠

الشيخ عبد العال يهتز يمنة ويسرة بلا توقف ٠ « الفلكة » بجانب المرتبة شديدة الاتساخ فوق الأرض الرطبة ، والمسبحة الخشبية الطويلة معلقة فوق المسمار ٠

النسوة ٠٠ الرجال ٠٠ الحمير ٠٠ والشيخ عبد العال والحاج سيد فى طريقهم الى المقابر ٠

أيضا كان رضوان فى طريقه للمقابر ٠

جذب الشيخ الجبة الباهتة من فوق المرتبة ٠٠ والمسبحة من فوق المسمار والمصحف أخذه الحاج ولم يتكلم ٠

كان يتابع نقل رجله مكان الأخرى ٠

لم يكن فى الطريق ميت اليوم ٠

« رحم الله عباده » ٠

نظر اليه الشيخ عبد العال بقسوة فراح يمشى كالألف ٠

ـ هيه ٠٠ ماذا ستفعل مع رضوان اليوم ؟

ارتعد الحاج ، جز على أسنانه ٠٠ آلمه ضرسه المسوس ، بحث عن اجابة ترضى الأب :

ـ رضوان ٠٠ لا شىء ٠

هتف الشيخ فى غيظ :

ـ يا ابن الكلب كل خميس يلهف الزبائن منك ٠

ـ صوته حلو ٠٠

ـ يا ابن الأبالسة قلت لك ألف مرة نغم فى صوتك ٠

ـ اننى أنغم دائما ٠٠

ـ طيب أسمعنى !

وضع يده اليمنى فى جيب جلبابه ، أمسك المصحف دون أن يخرجه ٠٠ الغلاف السميك متآكل ٠ لعن « الفلكه » فى سره ٠٠

هتف الشيخ عبد العال ، وأشاح المسبحة الخشبية ٠٠

ـ انطق يا سيدنا ٠

تنحنح الحاج سيد ٠٠ كح ٠٠ قال « بسم الله » وأخذ فى تلاوة سورة الرحمن محاولا التنغيم ، وعندما وصل الى « كل من عليها فان » قال الشيخ وهو يميل برأسه ناحية الولد الحاج القصير :

ـ اسمعنى هذه الآية كثيرا ٠٠ ارفع صوتك ٠٠ أنها مهمة ٠

وقف حمار ليبول فتطاير الرذاذ على الحاج ، والغبار فى هذا الحر يخنق الأنفاس ٠٠ بصق ٠٠ قال :

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان » ٠٠

تأجل غذاء الحاج اليوم وكذا الأب حتى بعد الخميس ٠٠ بعد

قراءة القرآن على الموتى بصوت حسن ليتسنى للحاج جمع القروش والكعك ·· والتمر ، وما يجود به المحسنون ·

« المشـــنات » فوق الرؤوس ستفرغ كلها اليوم فى أيدى المقرئين ·· والشحاذين ·· والعيال ·· و ·· ورضوان ·

أيام الأسبوع طويلة قاسية ·· حصيلة يوم الخميس سريعا ما يأتى يوم الثلاثاء فلا يجد منها شيئا ·

ينظر الى « الفلكة » ·· يسبه أبوه ·· ويسب أمه تلك التى هجرته من سنين ولا يعرف السبب حتى الآن ، ويحفظ الولد كل السور ·

ويشير الشيخ عبد العال بأصبعه المبتور العقلة الى ابنه الحاج قائلا لأهالى الموتى أنه ولد مبارك ولد فى أراضى النبى الحجازية ، ولدته أمه بجوار الكعبة وكان من الحجاج · وهذا يزيد الأجر قرشا أو تعريفة ، ويكون اللقب قد جاء بثمنه ·

« فبأى آلاء تكذبان » ·

قال الشيخ وقد فاض به الكيل :

ـ رضوان هذا ابن كلب ·

وعندما يأتى يوم الخميس يسأل الشيخ عبد العال الله كثيرا أن يصيب هذا الغلام « المفعوص » بمرض يرقده الأرض ، والله على كل شىء قدير ·· ويأسف على أيامه الماضية ، أيام كان صـوته يجلجل ويأتى من أول المقابر الى آخرها ، ولكن الآن عليه العوض ما عاد يمكنه الكلام بصـوت مرتفع وابن الكلب جاء بصـوت سىء كالحروف المكتوم ·

قال الشيخ :

ـ أعوذ بالله ..

كز الحاج على شفته ، عندما مسكه الأب من ذراعه الأيسر ، وقال هامسا فى خبث :

ـ ألا تعرف ضرب رضوان ؟

أردف الشيخ لابنه :

ـ ان ضربه بحجر يجعل دمه ينزف ، وربما هرب الى امه العاهرة .

سكت ثم قال :

ـ بناقص يوم ..

شد على كتفه :

ـ هيه .. ألا تعرف ؟

تلعثم الحاج سيد .. قال بعد مجهود ..

ـ كيف ؟

هز الشيخ رأسه فى أسف ..

ـ أنت ولد عاق ..

النسوة المتشحات بالسواد .. والرجال قليلو العدد .. والشيخ .. والحاج فى قلب « الوسعاية » أمام المقابر .

عربات اليد فوقها التمر والكعك الجاف ..

علت الضجة ·· وتفرق الجمع · كانت النخلات قائمات ·· عاليات ·· ولا تهتز ·

أنزل الشيخ عبد العال الجبة من فوق رأسه ، عدلها بعناية فوق جلبابه الزيتى وأمسك المسبحة فى يده اليسرى ، وبيده اليمنى أمسك يد الحاج فى حنان وأخذ يهز رأسه فى خفة ، وكان الحاج لا يشعر بسخونة الأرض هذه اللحظة ·· كان يفكر كيف يضرب رضوان لأنه لو فعل ربما أخذ قرش صاغ أصفر فوقه نسر ·

أدخل يده من تحت طاقيته المتسخة ليهرش شعره الأكرت ، لمح رضوان بلونه القمحى وعمامته باهتة الاحمرار وجبته السوداء ·

بدا الولد رضوان كالشيوخ ·

فتمنى الحاج أن لا يسمع صوته اليوم ··

تخطى ـ الأب وابنه ـ عتبة الباب الكبير للمقابر فى بطء ·· وأخذ الأب يتلو بصوت منخفض :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان ·· فبأى آلاء ربكما تكذبان » ·

كانت رائحة التراب نفاذة ·· الوجوه الصفراء تملأ الأمكنة ·· مجموعات النسوة تتناثر بجوار المقابر الصغيرة ، ولا بد أن تسمع النحيب ، وأن ترى الدموع تنساب بغزارة ، وقطع الحجارة الرخامية فوقها أسماء باللون الأسود محفورة بعناية ، وأروقة المقابر فرشت بالحصر ·· والملاآت ·· والبكاء ·· والهمس ·· وآيات القرآن ··

العيال يرددون :

« رحمة ونور يا خالة » ·

تمخطت واحدة بيضاء اللون ، وكان أنفها شديد الاحمرار ..

قالت :

ـ أهذا هو رضوان ؟

انزعجت الأخرى .. قالت :

ـ ليس هو .

قال الأب فى أسى :

ـ أول القصيدة كفر .

هرش خده الأيمن كثير التجاعيد .. فرك عينه بظهر يده .. ثم لكز الحاج سيد وقال هامسا :

ـ تقدم .

قال الحاج سيد للمرأة التى تسأل وهو يضم حاجبيه الكثيفين فى استعطاف :

ـ سأقرأ لك الرحمن .. والبقرة .. والنمل .

كانت رائحة فمه نتنه من ضرسه الموجوع .

ردت المرأة فى قرف :

ـ نمل فى عينك .

قال الأب غاضبا :

استغفر الله العظيم .

كانت امرأة نحيفة ·· ناشفة ·· سمراء ·· تجلس وحدها بجوار مقبرة صغيرة ليس عليها الحجر الرخامى ، لكن فوق المقبرة « اصيص » صغير به صبار كثيف ·

كانت وحيـدة فوق حصيرة متآكلة الأطراف وبجوارها كان كيس تمر وأربع كعكات ·

تقدم الشيخ عبد العال بخطى واسعة وجذب الحاج من يده وبجوارها قال :

ـ اجلس بجوار هذه المرأة الصالحة ·

ثم جلس بلا استئذان ، وأيضا الحاج سيد ، وكانت المرأة ترتكن برأسها فوق المقبرة ·

قال الشيخ :

ـ الله يتولى عباده برحمته ·

تنحنح ثم قال :

ـ اقرأ يا حاج ـ يا مبـارك من الأراضى الحجـازية ·· اقرأ الرحمن ·· اقرأ ·

كان الصبار أصفر ·· طينه ناشف مشقق ، لم يكن وجـه السمراء العجوز أثر الدموع ، والشقوق كثيرة فى جبر المقبرة · والنمل وحرامى الحلـة يجرون فوق الحصـيرة · أخرج الحـاج المصـحف وفتحه ·· دون أن يعرف على أى سـورة ـ ووضـعه فى حجر جلبابه ·· سعل ·· ثم بدأ فى التلاوة ·

رأى الشيخ عبد العال الولد رضوان محتضنا المصحف الكبير

تحت ابطه ، ورأى فى عينيه نظرة استهزاء وبسمة مفتعلة فوق شفتيه ، وبعينيه الصفراوين راح يحدق ويبحث عمن يقرأ له ·· وسمع الناس ينادونه ·

جاء السقا ، وبقربته أخذ يرش الماء ، ويلم التعريفات ·

الشيخ يميل للأمام وللخلف ·· وتنتفض العروق فى رقبة الولد ·

الشيخ يراقب رضوان الذى يسير كأنما فى بيت أبيه ·· وباقى المقرئين « الغلابه » الذين لا يرتدون الجبة والعمة بل الجلابيب المقززة والذين ـ حتى ـ لا يحملون المصاحف ·

كان الشيخ عبد العال يحقد عليهم قليلا ولكن هذا الولد ابن العاهرة الذى يمكن أن يأكل من عرق أمه · وفجأة علا صوت رضوان ، وكان يرتل سورة الرحمن أيضا ·

« النجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان » ·

ـ الله الله يا سيدنا ·

تطلعت الرؤوس ـ كما يحدث دائما ـ ولف صوته المكان كله ·

قال الشيخ عبد العال لابنه ليسمع المرأة الجالسة فى سكون ·

ـ أحسنت يا سيدنا ·

وكانت العجوز الضئيلة ما تزال راكنة رأسها فوق جدار المقبرة ، وكيس التمر كان قديما ومثقوبا وحذاءها المصنوع من البلاستيك كان متآكلا أيضا والكعكات الأربع موجودة ما تزال ·

السقا يدور بين المقابر ـ محنى الظهر ـ الشحاذون يمدون أياديهم المعروقة بالحاح ـ والعيال يرددون : « رحمة ونور يا خالة » ٠

رضوان يقفز بين مجموعات النساء ، يقرأ السور المتعددة المختلفة ٠٠ ويجمع القروش ٠٠ والكعك ٠٠ والتمر ٠٠ وفى النهاية يبيع التمر والكعك لناس آخرين ويضع النقود فوق النقود ثم يعطيها لأمه ٠٠ ويفرح زوج أمه ٠

قال الشيخ عبد العال فى نفسه :

ـ ألن يكفيك ما جمعت ؟

فرصة الشيخ الوحيدة ـ بعيدا عن رضوان ـ هى فى أيام الأسبوع حيث يقرأ الحاج سيد فى البيوت ويكون نصيبه القهوة السادة ٠٠ والقروش ٠٠ والبخور المتصاعد من حوله ، وفى المساء يجلس للحاج « بالفلكة » ويجعله يردد وراءه ما يقول ، ويحفظ الولد القرآن من أبيه الشيخ ٠٠ فالحاج لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ٠٠ والأب لا يستغنى عنه ٠ كان أمله أن يكون بصوت حسن ٠

ـ الله يا سيدنا الله ٠

ما يلبث رضوان أن ينتهى حتى يجد من يجذبه ليقرأ له ، وعندما نهض هذه المرة ٠٠ نهض أيضا الشيخ عبد العال ٠

نظر الحاج فى خوف الى الأب الذى مشى دون سبب ، أمسك المصحف المفتوح بيديه وأخذ ينظر الى المرأة ـ التى لم تستحسنه مرة واحدة ـ بغيظ شديد ٠

« رحمة ونور يا خالة » ٠٠

« الماء ·· الـ ·· ماء » وصوت بكاء متقطع

وكان رضوان يظن أن الشيخ عبد العال يترقبه لكي يسرق منه الزبائن ، وقف متحديا بين الشواهد الواطئة ·· قال :

ـ أنت مالك ومالى ؟

كان رضوان القصير النحيف نافخا صدره ، ماسكا بالمصحف تحت ابطه ، وعيناه الضيقتان تنطقان بالسخرية من الشيخ العجوز عبد العال ·

قال الشيخ وهو يشير بأصبعه المبتور العقلة :

ـ رضوان ·· كفاك ما جمعت ·

رد رضوان بصوت مرتفع :

ـ رزقى ورزقك على الله ·

أحس الشيخ عبد العال بأنه أهين ·

قال بدهشة :

ـ يا بن الكلب ·· ترد على ·

قال رضوان وهو يستعد للجرى :

ـ انت اللى ابن كلب ·

وجرى ·· وجرى الشيخ وراءه · تناثر من كعبيهما التراب الناعم فوق النسوة الجالسات ، لم يوقفهما أحد ·

خبط الشيخ فى السقا ، وتعثر فى حذاء بجانب حصيرة . وأحس بدقات قلبه عالية ، تمنى لو أنه بعافيته ، ومال هذا الولد

لقائه ٠

وكلما رمى رضوان نظرة سريعة للخلف لمح الشيخ يتعقبه بلا هوادة ، لو لم تكن المقابر لجرى به من بلاد الله لخلق الله ، لكنها النقود الموجودة ما تزال فى الجيوب ، وأمه البيضاء لا بد أنها ستفرح وتأخذ النقود وتدسها بصدرها ٠

عبثا حاول رضوان الفرار ٠

ـ ألا يخرج جنى من تحت الأرض « يلهف » هذا الشيخ المعتوه ؟

يتعقبه الشيخ فى كعبه ٠٠ الى متى يسكت عليه ٠ ان الأرزاق لا تقسم بالعدل ، كله قرآن الله فلماذا ابن الكلب ؟ وقدماه تؤلمانه بشدة ٠

ما عرف رضوان الى متى سيظل يجرى ٠٠ والنسوة ما زلن فى المقابر ، والموتى ما زالوا فى حاجة الى القرآن ٠

وقف رضوان وراء جذع نخلة سعفها قليل ، أقسم الشيخ عبد العال بأيمانات الله أنه لن يتركه ٠

الكيس ٠٠ الكعكات ٠٠ والمصحف مفتوح فى حجر الحاج سيد ٠

ـ لو رجعت الى هناك أموتك ٠

رضوان بعيدا عنه وراء النخلة ، يلهث ٠٠ يلعن هذا اليوم السيىء ، عرف أن ذلك يتيح الفرصة لأن يقرأ الحاج سيد وحده ٠

قال فى تحد :

ـ سأذهب وأقول لعمى يقتلك ٠

اندفع الشيخ تجاهه ، جرى الولد فى الخلاء ٠٠ سبقه كثيرا ، يثير الغبار ٠٠ والحصى فى الأرض يؤلم الأقدام الحافية ، والشيخ يجرى فى اتجاهه ، ذعر رضوان ، تعثر فى الجبة ووقع على الأرض ٠

كانت السماء واسعة ٠٠ وبعيدة ٠٠ لم يقدر الشيخ على اللحاق به ٠

التقط حجرا كبيرا ٠٠ شهق رضوان ٠٠ قذف الشيخ بالحجر بقوة ذراعه ٠

حاول رضوان الفرار لكن الحجر جاء فى جبهته ٠

ود الشيخ لو يبصق ٠٠ كان حلقه جافا ٠

وقع رضوان متألما ٠٠ يصرخ ٠٠ نزل الدم ساخنا فارتعب رضوان ٠

تلفت الشيخ حواليه ، خاف فجأة أن يكون الولد رضوان قد مات ـ طرد الخاطر ـ عاد يظلع الى المقابر ٠٠ وكان يرتعش ٠٠ وخطواته متعثرة ٠

« فبأى آلاء ربكما تكذبان ٠٠ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام » ٠

الحاج سيد يهتز فى رتابة ، يده على أذنه اليمنى ٠٠ المصحف مفتوح ، والمرأة فى صمت تركن رأسها فوق جدار المقبرة المتهالكة ٠

اللعبـــة والخـــاتم

فى الحجرة المظلمة ترقد الأشياء صامتة معفرة ـ لا تتحرك الا يوم الخبيز ـ والفرن جثة كبيرة راقدة محاطة بالهالات السوداء والرماد بالفتحة السفلية كثير ، حفنات منه أمام فوهة الفرن ·· رائحة الخبيز ساكنة لا تبرح الحجرة ·

فى الحجرة المظلمة تتحرك قدمان صغيرتان مطليتان بالمانيكير الأحمر الساذج ·

القدمان نظيفتان رغم أنهما حافيتان ·

خافت سعاد أن يتأخر محمد · راحت تسلى نفسها بأغنية حفظتها من أمها ·

« هنـا مقص ·· وهنـا مقص »

وعادت تردد المقطع مرات ··

محمد فى الحجرة الأخرى ـ على نفس السطح ـ يقنع أمه بأنها لا يجب أن تترك الحجرة وأن تظل أمام قدرة الفول تراقبها · أمه

أخرجت كل الملابس من صندوق كبير ـ بجوار السرير الحديدى ـ وأخذت تعيدها الى الصندوق قطعة قطعة مرتبة · أسعده ألا تخرج الى السطح هذه اللحظة ·

أمه وأبوه لا يحبان سعاد ·

أبو سعاد اسكافى عجوز يجلس أمام صندوقه وأحذيته القديمة على ناصية الشارع ·

أبو محمد ، لا يلقى على الاسكافى السلام · ويندهش كثيرا لأن سعاد تأتى دائما لتلعب مع محمد ·

ذات مرة ضربها أبوه على وجهها ·

« هنا مقص ·· وهنا مقص »

ترك أمه · اتجه الى باب حجرة الفرن · امتدت يده · اصطدم كفه الصغير بلوح خشبى كبير · اللوح واحد من ألواح عديدة صنع منها باب حجرة الفرن ـ على الباب رسوم كثيرة لأطفال صغار ، وكلمة الله ـ مكتوبة بالطباشير ـ كبيرة ، كبيرة ومتعرجة ، وتحتها مكتوب « محمد يحب سعاد » ، وكلمة يحب غير واضحة لأن محمد حاول مسحها مرة خوفا من أبيه · وهو لا يعرف على وجه التحديد لماذا ينهرون سعاد · قالت أمه ··

ـ أنت أكبر منها وعيب أن تلعب معها ·

« هنا عرايس » ···

سكتت ، اتسع فمها الصغير عن آخره ، ظهرت أسنانها الصغيرة البيضاء كلها ، أغلق محمد الباب همس : ـ هل رأتك أمى ؟

قالت :

ـ لا ..

الحيـاة داخل حجرة الفرن المظلمة ممتعة . بعيدا عن عصى المدرسين وأمه عادة لا تدخل هذه الحجرة الا أيام الخبيز ـ حين تخبز لصاحبة البيت .

الحجرة معتمة ، ساكنة ، وبالطابق الرابع ، أمامها سـطح متسع فى أركانه يرقد الحطب وألواح خشب قديمة ، وأحذية مآكلة لكنها كثيرة ..

تفرح سعاد عندما تفرش الشمس الصـفراء الحانية الحارات الضيقة ، ذلك لأنه فى هذه اللحظة تنتهى فترة الظهيرة بالمدرسة الابتدائية ـ التى تبعد ثلاثة شوارع عن حارتهم ـ ويعود محمد ، بعدها يكون أبوها الاسكافى العجوز قد تناول غذاءه من مدة طويلة وشرب كوب شايه وتكون اشترت له ثلاث سجائر ، ولذلك فانها عندما تفر من الدكان ـ ويعلـم هو بذلك ـ تتجه الى هذا المنزل ذى الأربعة طوابق حيث على سطحه حجرة فرن .. معتمة ، ساكنة وبعيدة .

فى الحجرة قالت البنت سعاد :

ـ معى ثلاث فراولات .

قال الولد محمد :

ـ نأكلها بعد أن نلعب .

فرحت سعاد ، فرح هو أيضاً ، دائما تأتى ليلعبا ، فى الأيام الأولى كانت تلعب معه فوق السطح ، وكان أبوه لما يأتى من عمله

بالمصنع يجلس راكنا ظهره الى الباب ويراها · كان لا يضربها ، لا تنسى هذه الأيام ، كانت الضحكات تجلجل فوق السطح ، ويلعبان معا لعبة « نط الحبل » ··

الطفلة الصغيرة سعاد معلقة فى الهواء ، عندما يتم الحبل لفة كاملة حولها تلمس أطرافها بلاط السطح حتى تضغط عليه وترتفع مرة أخرى · محمد سريع ـ أيضا ـ فى نط الحبل ، لكن اليوم نط الحبل ممنوع فوق السطوح ·

قالت سعاد :

ـ هيا نلعب ·

دارا فى حجرة الفرن ، احتضن يديها ، أخذ يحركها يمينا وشمالا ·

فى أول عهدها بالحجرة كانت تخاف صاحبة البيت ، أخبرته بأن صاحبة البيت عجوز لم تلد مرة واحدة ، قال لها نعم ، لكنها لن تغضب من اللعب بحجرة الفرن ··

قالت سعاد وهى تنط الحبل فى كلمات متقطعة ·

زوجها من أكبر باعة الخواتم ـ قفزت ـ والأقراط ـ قفزت ـ والأساور ·

قال محمد :

ـ سأشترى لك خاتما ·

وقفت ، سقط الحبل من يديها ، جرت اليه ··

ـ صحيح يا محمد !

فى حجرة الفرن قال لها عن الخاتم ٠

ـ رأى « الفراولة » فى جيب جلبابها المخطط بخطوط كثيرة ومتشابكة ٠٠ كانت الفراولات كلها خضراء ٠ سألته :

ـ ماذا نلعب ؟

قال الولد محمد :

ـ العريس والعروسة ٠٠

قفزت فى أرجاء الحجرة ، هتفت وقدماها تلامسان الأرض فى رشاقة وخفة ٠

ـ نعم نعم ٠

ثم راحت تغنى

« وحصانى فى الخزانة ٠٠

صرخت ، تألمت لما دخلت فى قدمها قطعة من الزجاج المكسور فرت من عينيها دمعة ، تمتم محمد مشيرا الى حجرة أمه ٠٠

ـ لا تبكى ٠٠

جلست على الأرض ٠ جلس أمامها على الأرض ، مدت قدمها اليه صغيرة بيضاء ، أظافر القدم مطلية بالمانيكير الأحمر ، يده ساخنة ترتعش ، مد يده ، وأخرج قطعة الزجاج اللامعة بسهولة قاما ، احتضن وجهها الأبيض النحيف بين يديه ، قال ٠٠٠

ـ سأشترى لك خاتما ٠

ثم أردف

ـ نلعب الآن العريس والعروسة ٠

أمسكت بفيونكة حمراء فى نهاية ضفيرة شعرها ، فكرت برهة ، قالت :

ـ نلعب ٠

تسلق الولد الفرن الطينى الكبير معتمدا على العود الحديدى الرفيع ، فوق سطح الفرن بقايا من عيدان الحطب المكسرة وبضعة أقراص من « الجلة » الناشفة ٠ بجوار الجدار عدة أجولة قديمة يفترشونها عند الخبيز ، جذب واحدا ، رماه ، تلقفته سعاد معفرة نفسها بردة الخبيز المتناثرة من الجوال ، قفز محمد الى الأرض واقفا أمام سعاد مباشرة ، فرشا الجوال ٠ جلس هنيهة يسترد أنفاسه ، بدت الأشياء صامتة ، والغروب يواصل زحفه الثقيل فوق البيوت، ألواح العجين الستة مركونة على الجدار ، والمطارح فى أحد الأركان ، وغربال كبير معلق فوق مسمار صغير ، الصمت يحتوى الأشياء ، خافت سعاد قالت :

ـ نلعب العريس والعروسة ٠٠٠

الطبول والدفوف والمزامير تعلو ، تزحم الحارات بموسيقاها ، يزاحم الأولاد ، تزغرد النسوة ، يذوب الرجال ، كل الأباء والأبناء ينتظرون هذا اليوم ٠ بعد هذه الليلة ستأكل البنت من عند زوجها وسيشترى لها الملابس للعيد ، يهبط العريس والعروسة من العربة، يصعدان أماكنهما المزينة بالأنوار ٠ ينفض المولد ، قال الولد محمد :

ـ نلعب ٠

قالت البنت سعاد :

ـ اخلع الحذاء ٠٠ هكذا يفعل الكبار ٠٠٠

قال الولد وهو يخلع فردة الحذاء :

ـ أتعرفين ، أنت أحلى من سوسن التى فى كتاب القراءة ٠

رمى فردة الحذاء بعيدا ٠

على الجوال جلسا متباعدين ، قال الولد :

ـ أنا أحبك ، سأتزوجك وأشترى لك خاتما ٠

قالت البنت فى أسف :

ـ أبوك لن يرضى ، كيف ستشتريه ؟

ركز على ركبته ، تحمس قائلا :

ـ فى كل يوم آخذ تعريفه صفراء ، كل يوم سأحتفظ بالتعريفة الصفراء ، عند أمى حصالة لا تستعملها ٠

قالت البنت سعاد :

ـ أسيكون لنا بيت مثل هذا ؟

ـ نعم ٠٠ لكننا لن نبيع الأسـاور والأقراط ٠

قالت :

ـ وهل ستضربنى دائما مثلما يضرب أبوك أمك ؟

أبوه ضرب أمه آخر مرة لأنها طلبته كثيرا بايجار الحجرة رغم أن الشهر كان لم ينته بعد ، زعق فيه محمد : ان صاحبة البيت هى التى تستحق الضرب ٠

نظر الى عينى سعاد الخضراوين كثيرا ٠٠ قال :

ـ سأحتفظ كل يوم بالتعريفه ولن أضربك ٠

قالت له فى فرح :

ـ لنلعب ٠

كانا رأسين صغيرين بينهما فيونكة حمراء ، متلاصقى الجبهة٠ والأعين تبرق ، وأربع أقدام فيها عشرة أصابع مطلية بالمانيكير الأحمر تمتد على الجوال بجوار الفرن ٠

تعلقت عيناها بالسقف ذى العروق الخشبية الممتدة من الجدار الشمالى الى الجدار الجنوبى ، وهناك عرق خشبى كبير يتقاطع معها من الجدار الشرقى الى الجدار الغربى ، من بين العروق الخشبية يتدلى الحطب والقش ٠ قال الولد محمد :

ـ أنا أكره هذا السقف ٠

ثم قال :

ـ رأيت مرة بين هذه العروق الخشبية فارا كبيرا ٠

خافت ، أمسكته سعاد من كتفه بقوة ، تلاصق جسداهما ، أحس الولد بنشوة ، قال :

ـ نلعب ٠

الطفلة الأصغر منه بعام فرحت ، قالت :

ـ أيوه ٠

تاهت نظراته ، ترددت بين وجه الصغيرة والسقف وفوهة الفرن السوداء ، قال :

ـ لما أنام فوق الكنبة الخشبية وأترك أخوتى الثلاثه نائمين على الأرض أرى أبى يحتضن أمى ·· ويهمسان بأشياء لا أفهمها ··

صمتت الطفلة سعاد كثيرا ·· نظرت اليه فى خوف شـديد ، لكنها تذكرت اللعبة ، ابتسمت ، قالت :

ـ العروسة لما تنام تخلع كل شىء ·

اعتدل محمد جالسا ، قال :

ـ ما عدا الخاتم ·

جلست هى الأخرى ، فردت له أصابعها العشرة ، سألته :

ـ وأين الخاتم ؟

عض أصبعه ، قال :

ـ سأشترى لك خاتما ·

قالت البنت :

ـ متى ؟

قال الولد :

ـ لما أكبر ولا أنتظر جنيهات أبى القليلة آخر الشهر ·

قالت البنت :

ـ ألن تصبح عاملا مثل أبيك ؟

قال دون سبب ··

ـ أبى لن ينام مع أمى اليوم · يعمل من وردية السـاعة الحادية عشرة ·

تقلب الولد ، احتوته البنت بين ذراعيها ، أحسا الأنفاس حارة عصا المدرس تهوى عند تسميع المحفوظات ، تقلبت البنت ، الأب يزعق دائما عند تناول العشاء ، مر « الشاكوش » بجوار أذن سعاد مباشرة ليصطدم بالحائط ، قبلته البنت ، صرخت أمها قائلة لأبيها ، البنت ستموت ، احتضن الولد البنت ، بفردة حذاء يصلحها ضرب سعاد بشدة انقلب الصندوق الكبير ، تناثرت المسامير ·· قبل البنت ، صرخ الأب هذه البنت لا تأتى هنا ، دافعت أم محمد ، طفلة يا أبو محمد ، زعق لا ···

قالت البنت سعاد وهى تتشبث به :

ـ سأعطيك كل الفراولة ····

عندما يهدأ الشارع وتنسحب الدفوف ، وتطفأ الأنوار ، يظن الجميع أن الهدوء لف العالم ، غير أن لعبة العريس والعروسة تبدأ ·

دهشت الطفلة الصغيرة سـعاد عندما رأت فانلته شـديدة الاتساخ ·

سألته :

ـ ترى هل سيأتى الفأر الكبير مرة أخرى ؟

تحسست البنت أماكن عديدة فى جسد الولد ، اللعبة جميلة ولذيذة لحظة العرس ·

قالت البنت سعاد :

ـ قال لى أبوك لا تأتى هنا ·

قبلها محمد ، ربت على وجهها ٠

ـ أنا أحبك ، كل يوم سأحتفظ بالتعريفه الصفراء وأشترى لك خاتما ٠

رمى فانلته المتسخة ـ جدا ـ بعيدا ، رفعت فستانها لأعلى ، ناما ٠

تمددت أرجلهما عن آخرها ، قال الولد محمد :

ـ لا بد أن تأتى كل يوم ٠

ـ ثم ماذا !

تردد الولد ، تلعثم ، قال :

ـ لا أعرف ٠٠٠

جاء من الخارج صوت الأم مناديا

ـ يا محمد ، يا ولد يا محمد ٠٠

الظلام يزحف على الأشياء يغطيها ، كل شىء مخيف وأسود ٠

قالت سعاد :

ـ انهض ولنكمل اللعبة غدا ٠٠

سمع أمه تناديه للمرة الثانية ٠٠٠

يا محمد ، محمد ٠٠

فرت سعاد من تحته فجأة ٠

فتحت الأم البـاب ، نظرت الى سـعاد بعينين واسـعتين شرستين ، اقتربا محمد وسعاد ـ منها ـ رجعت الى الخلف قليلا ، على عتبة حجرة الفرن وقفا ، النسمات الرطبة عانقت الوجه والظلام ليس بالمفزع مثلما هو داخل الحجرة هوت يد الأم على صدغ الصغيرة، بصرخة مكتومة جرت البنت متجهة الى السلم ، وقف الولد لحظة مواجها أمه ، جرى فجأة ، على درجات السلم وجد الثلاث فراولات مبعثرة ، جمعها ، احتضنها فى كفه ، أخذ يعدو فى الشارع ، يعدو ، الأضواء الشديدة ألمته ، أتجه الى دكان صاحبة البيت ، بالواجهة الزجاجية أقراط وأساور عديدة ، حملق بشدة فى خاتم على مربع من القطيفة الحمراء وما يزال محتضنا فى كف يده ثلاث فراولات خضراء ٠

النهـــــر

غمر « على » فرح دافىء حين توقف ســقوط المطر ، أصبح شريط الأسفلت مغسولا ·· والحفر الصغيرة وقفت فيها المياه ، وعلى الجانبين امتد الطين حتى حواف الغيطان ·

مرق فى السماء الواسعة الداكنة طائر صغير ·· وحيد ، وكان يرجع صوتا رائقا · أزاح « على » الزنط الثقيل ، لسع الحصان البنى العجوز كرباج صــفر بجوار الأذن ، لم يسرع الحصـــــان خطوة زائدة ·

النهر يجرى فى محاذاة الأســفلت لا ينحنى تاركا ســـكة المسافرين الا عند القنطرة البيضاء · تابع « على » النهر وتمنى لو أن النهر مملوء بالماء كى يعوم · لكن شهر «طوبة» يأتى والجفاف لا يترك غير الســمك · حمولة التراب فوق العربة الكارو تجعل الحصان لا يسير الا بالكرباج ، وقت تعبت يد الصغير « على » ·

فى وقت الفجر كانت الريح سريعة والمطر غزيرا ، وكان «على» ينام القرفصاء فى حضن أبيه ، نفذ الضوء الشحيح من النافذة · نفخت الأم فى أعلى زجاجة المصباح الغازى ·· فانطفأ ·

ـ أنت راجلنا يا على ٠

صهل الحصان العجوز ، نهض الأب مرتكزا على يديه ٠

ـ توكل على الله ٠

لبس الزنط ، أخذ الكرباج الخفيف ٠٠ الطويل ، وسحب الحصان من الزريبة ٠٠ ربت على رقبته ٠ ناعمة الشعر ، كان «على» يرتجف بردا ٠ خرج مع الحصان والأبخرة تتصاعد من أنفيهما ٠ سيقطع مشوارا طويلا حتى الكفر ٠ ويخترق الشارع العمومى ٠ وينحنى يمينا ٠ ويعبر السكة الحديد ٠ ثم ينحنى يسارا فيجد منزل الأستاذ « فهمى » ـ هذا الرجل العجوز ذو النظارة السميكة ـ وسيجد الجنينة ٠٠ ابتسم « على » والتمعت عيناه ٠ لم ينس تعليمات المعلم « فاروق » ، فرقع بالكرباج ٠

ـ شى ٠

العريش الأحمر مبتل ٠٠ كفل الحصان البنى اللامع مبتل ٠ وقف « على » منتصبا فوق العربة ، خلفه التراب المرتفع المبتل ٠ وأمامه كانت السكة تقوم عليها أشجار الكافور و « شعر البنت » وكانت كلها خضراء ، العيال العفاريت تركوا دورهم فى العزبة ٠ ويجرون فى النهر ٠ الذى يغطى قاعه شبر من الماء ٠ عيل يجرى وراء آخر وقع المتقدم فجأة ٠٠ وضحك « على » بصوت مرتفع ٠ مرت عربة أتوبيس صفراء مسرعة ٠ فرقع بالكرباج وراءها ، مسح أنفه الدقيق بكم سترته المجلدة السميكة ٠ ووجهه الأسمر يميل الى الزرقة ولا يكف عن التمخط بين لحظة وأخرى ٠

كان عليه أن يترك النهر عند القنطرة البيضاء ٠ لكنه شد اللجام يمينه وانحنى مع النهر ٠٠ قفز من فوق العربة ، غاص حذاؤه الجيشى الضخم فى الطين ، انزلقت قدمه اليمنى فاستدار على سور

الكوبرى البارد ، عدل جلبابه من تحت السترة السميكة ، لم اللجام ورماه فوق العريش وغرز الكرباج فى قلب التراب ورآه كالعلم ، فرح ، فرك يديه وراح يصفر مقلدا صوت العصافير • حيث الماء يرتفع حتى الركبتين وقف ثلاثة رجال ، كان اثنان عاريين تماما ، والثالث يغطى جسده من أعلى فانلة برتقالية اللون بكم طويل ، زعق أحدهم وكان عجوزا عاريا •• ويتناثر قليل الشـــعر فى صدره •

ـ اسحب يا أحمد •• اسحب •

جذب أحمد الشباك ناحيته ، يداه تقبضان على الاطار بقوة • وقد انتفضت عروقه وكان لسانه خارجا ، والرجل الآخر تغوص رجلاه فى الطين ويجذب الشباك من الوسط وقد رمى بثقله كله للوراء •

الهواء بارد •• تسلى « على » باخراج النفس بفمه لاخراج البخـار وأخذ يكرر ذلك •• العيـال متنـاثرون على الشـط •• يرتجفون •• ولكن فى تحفز دائم ، يهوون رؤية السمك فى قلب الشباك •

فوق الكوبرى امرأتان •• فلاحتان ، واحدة ترتدى جلبابا ملونا • والأخرى جلبابا أسود •

قالت ذات الجلباب الأسود :

ـ عينى عليهم من البرد •

وضعت ذات الجلباب الملون يديها تحت أبطيها للدفء •• وأزاحت للوراء « حرامها » الذهبى اللون •• وأخذت تنظر للرجال العرايا فى دهشة •

وقف « على » بين العيال · وكان يضحك كثيرا حين يرى مؤخرة أحد الرجال · وكان ينهر العيال لما يقولون قلة أدب ·

نقطة المرور القائمة على القنطرة البيضاء ، تواجه النهر والكوبرى والرجال و « على » ·

زجاج النافذة مندى ببخار الماء · حيث الدفء فى الكشك · والرؤية وراء الزجاج مغبشة · وعسكرى المرور النحيف العجوز · خلع حذاءه ، رماه بجوار منضدة خشبية ، ومدد رجليه بجوار منقد فخارى يستمد الدفء من (القوالح) المحترقة ·

وكان سعيدا · وانزعج فجأة عندما رأى العربة الكارو تخالف قانون المرور فى موضعها · مد يده تحت المكتب وأخرج خرقة نظيفة ليمسح الزجاج ثم نقر بشدة ولم يسمع « على » ·

ـ اسحب يا أحمد ·· اسحب ·

صنع الصيادون حوضا من الماء لمحاصرة السمك · وضعوا قطع الحجارة البيضاء الكبيرة من تحت الكوبرى حتى مسافة تبعد عن « على » بكثير · قطع الحجارة عالية ·· ومتناثرة ·· سأل «على» ولدا بجواره :

ـ الحجارة دى حتوقع المراكب ·

يذكر جلبابه اللبنى « البوبلين » كان صغيرا مثل هذا الولد الحافى · أعطاه أبوه العفى قرش تعريفه أحمر منقوش ·

ـ روح المراكب ·

العيال مثل السوق ·· ألوان عديدة ·· وضجة ليس لها قرار ·· كانت المركب المحشوة بالأطفال تميل ·· تميل ·· نهض

المراكبى ·· شـد « الكلبوش » حتى أذنيـه ·· غير من اتجـاه المجاديف ·· تشبثت يد « على » بحافة المركب ·· تشبثت بهدوم جاره ·· اعتدلت المركب ·· صرخ الأطفال فى فرحة ·

ـ هيه ···

غنى العيال فرحا :

« سالمة يا سلامة ·· رحنا وجينا بالسلامة » ·

فتح العسكرى النافذة ·· أخرج ذراعه ·· أربعة أشرطة فضية لا تلتمع ·· زعق غضبا :

ـ أنت يا حمار ···

قال العيال لعلى :

ـ العسكرى حيسجنك ·· العسكرى حيسجنك ·
وجروا ··

تقدم العسكرى ·· ضرب أصابعه فى كتف « على » ·

ـ دير العربية الناحية الثانية ·

قال « على » فى قرف :

ـ طيب ما تزعقش ·

وهتف العيال :

ـ السمك ·· السمك ·

جرى أحمد وبيده الشـبكة تجاه الشـاطىء ، كان يجذبها

بصعوبه . وكان الآخران يدوران معه والسمك القليل والصغير يتقافز ملتمعا فى قلب الشباك ٠

قالت ذات الجلباب الأسود :

ـ والنبى أشترى نص كيلو للعيال ٠

قالت ذات الجلباب الملون :

ـ دول ميكفوش عيل ٠

ثم جذبت ذات الجلباب الأسود وسارتا بخطى وئيدة ٠

« على » يعشق النهر ٠٠ ويألفه ٠٠ كان يقضى نهاره لعبا فى النهر ٠٠ وكانت أمه تغسل الملابس والصحون فى النهر ٠

ـ الجنية تأخذك عشان تتجوزك ٠

يحب النهر فى الصباح لأنه يكون مثل الماء ٠٠ أزرق ٠٠ وأبيض ٠٠ ومشمس ٠٠ ومتوج ٠٠ ويكره النهر فى الليل لأن الجنية تضحك على الرجال بشعرها الطويل ، وصدرها الأبيض الجميل ٠

كان « على » يلعب بطاقية أبيه ٠٠ ثم طوح بها فى النهر ٠٠ وما أن تشربت المياه حتى غطست ٠٠ وأكل علقة ساخنة من أمه ٠٠ ومن أبيه ٠٠ ومن أخته الأكبر منه ٠

اقترب من الشاطىء أكثر ٠٠ جاور الرجل العارى تماما ٠٠ نظر فى الغلق وجد السمك كثيرا ٠٠ له عيون براقة ٠٠ ورائحة محبوبة ٠٠ بلطى ٠٠ وقراميط ٠٠ وحمار البحر ٠

نظر العسكرى من وراء الزجاج مرة ثانية ·· واغتاظ من وقوف العربة الكارو ·· فتح النافذة ·· وزعق ···

ـ يا ابن الكلب دير العربية ·

قال الولد :

ـ العسكرى بيشتمك ·

زهق « على » من اصرار عسكرى المرور ·· تراجع ببطء ·· استند على يافطة من الصفيح ذات قوائم عالية فوقها اعلان بألوان جميلة جميلة حمراء ·· وصفراء ·· وزرقاء ·

« استمتعوا بأجازة الصيف » ·

فى شاطىء بلطيم ·

شاطىء ·· السحر ·· والجمال ·

بلطيم ·

٨٢ كيلو متر ·

تمخط « على » مسح أصبعيه فى قائمة الاعلان ·· انحنى ·· زرر حذاءه الجيشى المغموس فى الطين ·· كان الحصان يدلى رأسه تجاه الأرض ·· وكان يرمش كثيرا ·· جذبه من اللجام ، رجع للوراء ·· ثم شد الكرباج ·· وعمل فرقعة شديدة وزعق ·

ـ شى ·

فى البدء تزحلقت حوافر الحصان ·· ثم اندفع للأمام ··

ولفت عجلات العربة قليلا ·· وسريعا ما بدأ الحصان يخطو ·· قفز « على » فوق العربة ·

وينحنى لليسار ·· منزل الأستاذ « فهمى » ·· الجنينة هناك ·· يروح ويجىء أربع مرات فى اليوم لينقل تراب المعلم فاروق للجنينة ·· قالت له أمه :

ـ حيسقوك شاى يا على وتأكل برتقال من الجنينة ·

وقف منتصبا ·· نظر للمياه الداكنة ·· قال :

ـ شى ·

وألقى بنظرة سافرة لعسكرى المرور ·· ونزل الرجال العرايا الى النهر ·· والعيال الحفاه تغوص أقدامهم فى الطين ويتابعون الصيد ···

العـــــنب

لن نكف عن مشـــوارنا اليومى ، سرقت المنـــديل المحـــلاوى الكبير ·· وضعته فى سيالة جلبابى وناديت على أختى الشـــقية دلال ·· كانت قد سبقتنى الى السكة البرانية ·

سارت جماعتنا الصغيرة على طريق طويل ترابى ، وتحت شمس يوليو النارية كنا نجرى وراء بعضنا ·· وكنا نتنفس صهد النهار ·· ونحن نعرف كم باق وكم فات من هذه السكة ، فهذا هو الكوبرى ·· وهذه هى شجرة التوت ·· وهذه هى المصلية ·· سارت دلال أختى التى تصغرنى مع ولد أكبر منى أسمه سعد ·· وسرت أنا مع حسن وهو أكبرنا جميعا وعنده صندل بنى ·

السكة حتى جنينة العنب طويلة ، ترابها ناعم ، يعفر السيقان ويلبد فى الشعر ·· سكة تستغرق نصف نهار ·· قال حسن وهو حزين :

ـ ثلاثة أيام ونرجع من غير العنب ؟

قلت لأم بديع ـ أمى ـ ذات ليلة عن حبى للعنب ·· قالت أن كل الفواكه لأهل البندر وأن الفلاح هو صاحب كل الخير ·· مسحت

أمى سناج الكانون من وجهها ومددت رجليها ، ركنت أنا الى الجدار ولم أفهم لماذا لا نأكل الفواكه ٠

قال سعد وهو يفرد حقيبة قماش ممزقة لا لون لها :

ـ أمى ح تتجنن لو دورت عليها ٠

سعد له شعر طويل وأكرت ونسميه فى الحارة « رأس العبد » وله أسنان كبيرة مثل أسنان رجل ٠

ردت عليه دلال فى سخرية :

ـ يعنى أمك ح تجيب الخضار ؟

عند السبيل توقف بعض الفلاحين النحاف ، الذين لهم رقاب طويلة وعيون واسعة مثل عينى أبى ٠

كانت الحمير تقف فى تراخ وكسل ٠٠ وكانت تنفخ فى الأرض ، الشجرة العالية قائمة على طرف غيط القطن ، والمصلى مفروش بقش الأرز ، وجزء من حصيرة متآكلة يقف عليها الامام ساعة الصلاة ٠ والسبيل به الزير الذى يملأه أولاد الحلال من الترعة المجاورة ٠ انتظرت حتى فرغت المرأة النحيفة من شرب الماء ، ثم أخذت منها الكوب الصفيح النظيف : ان السبيل هو محطتنا الرئيسية حتى نملأ بطوننا بالماء فالمشوار طويل وحكايات سعد عن الحجاز أصبحت مملة ، ما أن وضعت الكوز على فمى حتى أخذ حسن يلح فى طلب الماء ٠

ـ يالله يا بديع ٠٠ هات يا بديع ٠

ثم خطف الكوز من على فمى ، وكان الناس يحمدون الله كثيرا ، ويلقون بالماء المتبقى فى الترعة شربت دلال ٠٠ وشرب سعد،

واحتفظ حسن بالماء فى فمه وما أن سرنا قليلا حتى أخذ « يبخ » الماء على وجه دلال التى سبته قائلة :

ـ يا بن الخبازة ٠

وقف حسن ـ أحمرت أذناه الكبيرتان ـ قال فى غيظ :

ـ شايف أختك ٠

ثلاثة أيام ولا بد من حل ٠٠ هذا العنب اللذيذ ٠٠ الأصفر مثل عقود « الكارم » يفوت على عزبتنا فى عربات اللورى ، وعلى الحمير ، وفوق رؤوس النسوة ٠٠ ونحن لا نأكله ٠٠ نحن نشتهيه هو حلو سواء له بذر أم عنب بناتى ٠٠ وأم بديع لا تشتريه مثل باقى النسوة ، وأبى أيضا لا يهوى العنب ٠

تحت السقيفة تربى أم بديع أربع بطات وديك شرس ٠٠ تحت السقيفة جلسنا ولم تكن معنا دلال ٠

ـ عارفين لو دخلنا الجنينة نأكل عنب على كيفنا ٠

ـ الواد فوزى دخل ٠

ـ دا الغفير كان حيموته ٠

للعصافير جلبة فوق قمم النخيل ٠

ـ مضربوش ٠

ـ تمد ايدك تلاقى العنب ٠

ـ التجار بيمشوا ورا حمير العنب زى حراس الرمة ٠

فى الجنينة عنب يتدلى فى انتظـار أن تقطفه أيدينـا ونحن لا نملك الفلوس لندخل ٠٠ ونشترى ٠٠ ونقطف ٠٠ نحن نعرف

العنب ·· ولكن نريد أن يكون لنا جنينة ·· نأكل منها كما نشاء ·· وعندئذ سيحبه أبى ·· وتجمعه أمى ·

قال سعد وهو يهرش فى شعره الأكرت ·

ـ عارفين قمر الدين ، بيعملوه من العنب ·

هو ولد فصيح ·· وأبوه حاج ·· وعندهم جاموسة وجدى بنى مسه الجنون ·· يقفز كعفريت ، ولا بد أن سعد أكل قمر الدين أنا ودلال لا نعرف كثيرا عن قمر الدين ولكن ذلك أدهشنا وحمسنا كثيرا ·· قال حسن :

ـ يا سلام لو نسرق غلق عنب ·

لم نعد نحب المقابر ·· ولا زيارة المقابر ·· ولا اللعب فيها ·· الناس فى المقابر لهم وجوه كئيبة ، ومصفرة وجلابيب لها رائحة عطنة ·· اننا نريد العنب ·

اقتربنا من بعضنا فى حذر ، ان سرقة العنب ليست سهلة ، هناك : الخفير ·· والتجار ·· والوزان ·· والكلاب ·

تحت السقيفة رائحة الدريس ·· ورائحة التراب ، والديك ينقر بلا توقف فى صحن صاج قديم ·

كنا قد فشلنا ثلاث مرات ، فى كل مرة نقف على باب الجنينة تسبقنا عيوننا الى الداخل ، لعاب حسن يسيل لما يقف ويرى كثافة الشجر الأخضر القاتم ، يقترب الخفير ذو الشارب الأسود والعصفور الأخضر الموشوم على صدغه ، يهز عصاه الطويلة فى وجوهنا ·· يزغر الينا ·

ـ امشى يا حرامى يا بن الحرامى ·

لا أزعل حين يقول عنى حـرامى فنحن أيـام الـذرة نسرق « الكيزان » ونعمل راكية نار كبيرة بجوار دارنا ، ويأخذ كل عيل نصيبه • أما الولد سعد فهو حريف صيد سمك من قلب الغيطان ، يأخذنا الى غيط عم فرج الأشول أيام الأرز ونغوص فى الطين وراء القراميط ، وعم فرج •• يجرى وراءنا بالفأس •• ولكننا لا نترك السمك أبدا •

النخلة عالية •• عالية •• والسقيفة بجانبها كعقلة أصبع •

قال حسن فى حماسة :

ـ أنا أحدف الحفير بالطوب وانتوا تدخلوا •

قال سعد :

ـ احنا نديله صاغ وهو يدخلنا •

لو ضربنا الحفير لأمسك بنا وذهب بنا للحكومة ، ولأخذت الحكومة تؤدبنا فى المركز وتضربنا ، وتأخذ الحكومة نقودا من أهالينا حتى تؤدبهم أيضا ، أما اذا أعطيناه « صاغ » يكون علينا ـ أحسن ـ أن نضع فوقه « صاغ » آخر ونشترى عنبا فرطا من أى امرأة فلاحة راجعة من الجنينة •

أريد أن أدخل الجنينة •• وأخرج وفى يدى عناقيد العنب بلونها الكهرمانى الأصفر • عناقيد كبيرة وحلوة ، ثم نوزعها على بعضنا ، وآخذ عنقودا كبيرا وأجرى بقدمى الحافية وأقفز الترع •• وأنادى على أمى :

ـ خذى يا أم بديع •• املى بطنك ، علشان تخلفى لنا ولد عينه حلوة •

للشمس سخافتها أيضا حين لا تحبنا نحن الصغار ، وتحول التراب الى نار يلسعنا فى أرجلنا الحافية ، وحين تضربنا فى أدمغتنا ونضطر للنزول الى الترعة لنرطب أدمغتنا ونغسل شعرنا ٠

كنت أسير مع سعد وكان جلبابه الأزرق له طوق واسع ٠٠ وصدره نحيف «معضم» ٠٠ وأخذ يحدثنى عن كيف انه تناول افطاره من اللبن ٠٠ وأمس تعشى لبنا ـ رغم أن أم بديع ـ أمى ـ وأعرفها جيدا فهى ليست كاذبة ولا حقودة ـ كانت تحكى لأبى عن جاموسة أم سعد ، وكيف أن أبا سعد كل يوم والثانى عند حكيم الوحدة ليعالج الجاموسة التى لم تعد تساوى حمارا ٠

الترعة أخت الطريق لا تفارقه ٠ هى منخفضة عنه ، ومياهها جارية ، وتلتمع فيها المياه بألف عين من عيون الشمس ٠ أخذت دلال تتقافز كعنزة وكانت تصرخ بلا غناء ٠

أبوح يا أبوح

كلب العرب مدبوح

وأمه وراه بتنوح

تحت السقيفة أخبرتهم أن العنب يكون لنا لو دخلنا الجنينة وأسقطناها فى أيدينا ٠٠ ولما نلم ثمارها دون خوف ، وتفتر كل الأفواه مبتسمة فرحة ٠٠ فتبين الأسنان الصفراء الفقيرة ، وحين نلمح فى العيون فرحة العنب يكون علينا ألا نزن لأحد ، يكون علينا أن نغنى بصوت واحد ٠

تسللت الشمس من بين الغيطان الناشفة ، والسقيفة يشع منها صهد « بؤونة » وظلالنا تحتنا منكمشة وحرارة النهار تجعل كل حى يختبى فى جحره ٠

لازم ندخل الجنينة ٠

فشلنا فى صنع فتحة بالسور ٠ هذا السور اللعين كثيف الأشجار ، وهناك سلك به مسامير لا يخطئه عم محمد الكفيف ، كما أنهم يقولون أن للخفير عيونا مثل عيون الصقر ٠ وصاحب الجنينة لم يؤجر هذا الخفير ٠ ولكن الذى عين الخفير هو التاجر ـ وكان واسطة الخفير هو عم راشد البقال ٠ والفرق بين صاحب الجنينة والتاجر ـ كما يقول حسن ـ أن صاحب الجنينة سمين جدا وأصلع وعنده سيارة ـ أما التاجر فهو ـ كما يقول حسن ـ فلاح جلف ربنا رزقه بمبلغ سرقه أيام القطن من حساب الأنفار وأنه كان ينزل سوق الثلاثاء مرة بالأوز ٠٠ ومرة بالماعز ٠٠ ثم بالغنم ٠٠ وأخيرا بالجاموس ٠

قال سعد وعيناه مندهشتان :

ـ الحاج اسماعيل راجل ابن كلب ، كرشه مليان عنب ٠

جاءت أمى وفى يدها المقشة البلح ، نظرت الينا متسائلة :

ـ بتعملوا ايه يا عيال ؟

كانت أمى تنظف صدرها من تراب الفرن ٠٠ قالت :

ـ فز من جنب البط انت وهو ٠

قلت لها فى ود :

ـ سعد بيحكى لنا عن الحجاز ٠

لم ترد أمى ٠٠ هى تفرح من سيرة النبى ٠٠ وتفرح عندما أذهب وقت الظهيرة وأغوص فى الترعة ٠٠ ظنا منها انى بالزاوية أصلى ، حملت أمى الدلو الصدىء وسارت ٠

أبو سعد زار الحجاز حتى يقول له الناس يا حاج ·· ولم يأت لسعد بجلباب من أرض النبى ·

اقتربنا من بعضنا ·· كنا فرحين ·· وجلين ، نظر كل منا فى عين الآخر يستكشف صدقه ·· اتفقنا على موعدنا غدا ، وكان أن سرقت المنديل المحلاوى ·

على البعد عزبة ·· بيوتها واطئة ·· ونرى المئذنة البعيدة فى كفر الجنينة ·· وهناك الجنينة قبل الكفر ·

سمعت دلال تقول لحسن :

ـ ابقى ادينى عنب عشان ألعب معاك الاستغماية ·

صرخ حسن ضاحكا :

ـ ها ·· خدى من أخوك ·

سقطت قطرة عرق فى عينى ، مسحت وجهى بكم جلبابى ، وحسن يلم الطوب المكسر من الطريق ويضعه فى جيبه · هو دائما يجمعه ، يقذف به من يعترضه · شيخ الكتاب ، أو حتى أبيه الذى لا يعتقه من علقة كل يوم بالخيزرانة الكافرة ·

فى جيب بيجامته طوب كثير ، وصندله البنى أصبح فى لون قدمه وبيجامته فى اتساخ واحد ·

رهط من الأغنام يقبل ، يثير غبارا يعلو حتى الشجر ، للغنم رائحة ، ولمشيتها طريقة مهرولة ·· ولحوافرها نقر لطيف وتمأمىء بين حين وآخر ، والراعى وسط القطيع مشغول بغزل طاقية من الصوف رغم أنه حافى القدمين ، لم يكن يتألم من النار الطالعة والحمار الأسود له لون أجرب يشد رجله شدا ·

دخل سعد بين القطيع وأخذ ينط · زعقت فيه دلال بغيظ وخوف :

ـ يارب الكبش ينطحك ·

وكانت دلال خائفة ·· سمعنا المأمأة ثم « فرقلة » تفرقع على ظهر سعد ، وأخذت كلاب ثلاثة فى حجم الخراف تنبح وتجرى نحو سعد ، قفزنا نحن الثلاثة « التركيب » وأصبحنا فى قلب الغيط كان سعد يشد جديا من ذيله ·· غير أن الراعى اكتفى بضربه بالفرقلة ، والكلاب لم تعض سعد ·

كانت الأحاديث خافتة ومنهكة بين النسوة اللاتى يحملن أقفاص العنب ، وصدورهن ، ترتفع وتنزل بانتظام ولهن صدور كبيرة مثل صدر أم حسن · ولسوف يبعن هذا العنب بقروش زائدة عن ثمنه فى الجنينة ، ولن يشترى أبى من ـ شلبية ـ أبى لا يعرف فوائد العنب ، ويقول أن البطيخ يرطب القلب ·

وأنا ·· وأنا أحب العنب أكثر من حبى لأمى ، وأكثر من اللعب عند « المربط » بل حتى أكثر من دلال ·

ياالله ·· دق قلبى بعنف ·· واحمرت أذناى ·· الخفير على الباب ·· والجنينة خلفه ، لكنه لا يحجبها ·· نحن نراها جيدا ، للخفير عيون شرسة ·· ويملك عصا طويلة كافرة أيضا · خافت دلال ·· تراجعت للوراء ·· الزحام على البوابة ، لابد أن نهرب من بين الفلاحين ، سعد يشب على أطراف أصابعه · سألنا :

ـ نجرى ·

بلع حسن ريقه ، لا مفر ، نحن الصغار نرتجف ، ولكننا نحب العنب ·· ونحن الصغار قررنا الدخول ·

قال حسن :

ـ أقول واحد ·· اثنين ·· ثلاثة ·· نجرى كلنا ·

دفعت دلال أمامى حتى لا تخـــاف ولا تتردد · ضغطت على شفتى ، للعنب مذاق حلو ، وهو فى الفم ســـكر ، وسيكون فى حجرنا كنز ثمين ·

ـ واحد ·· اثنين ·

طرنا من فوق الأرض ، تخبطت بالفلاحين ، كنت كالمسوس، خائفا ·· فرحا ·· الجنينة واسعة سوف نغوص فيها وتبتلعنا ولن يأتى بنا الذباب الأزرق ·

حين انفلتنا داخـــل الجنينة لمعت الشمس كالمرايا ، وكان التراب ناعما ·· وساخنا ·· جريت فرحا ، وتقافزت كعصـــفور صغير يتعلم الطيران · مدقات الجنينـــة تراب ناعم ·· حرير ·· اللون الأخضر الزاهى يغمر المكان ، وفجأة ·· كالمصابيح الدقيقـة برق العنب ، كالنجوم الخضراء تلألأ ·

حين قفزت لأعلى لم تكن السماء زرقاء · كانت صافية متوهجة بضوء الشمس ·

الفلاحون بجانب الحمير ، المرأة العجوز تأتى بنصيبها ·· لم أر العيال ، كل اندفع فى اتجاه ·· هذه الجنينة لنا ·· ســـوف نأكل ما نريد ·· وآخذ عنبا لأم بديع ·· ستحبنى أمى كما تحب الجلوس أمام الفرن · وسيفرح أبى كثـــيرا لأن ابنه جدع ، ولن يسيل لعابى حين تمر أفواج الحمير مخترقة عزبتنا فى طريقهـــا للمدينة ·

ـ أمسكو ولاد الكلب ·

فجأة رأيت الدنيا تلتمع فى توهج ·· ثم ·· لم أعد أرى شيئا · أصاب كل شىء لون باهت وأحسست بقلبى يفر منى ·

ـ امسك يا شيخ على ·

الشيخ على : وزان الجنينة ·· رأيته مثل الكلب المسعور يجرى تجاهى ، فمه الواسع مفتوحا ·· وعيناه كانتا مسمرتين فوقى · ضاقت الجنينة وهربت روحى ·

شهقت · أخذت أطير من فوق الأرض · حتى سقطت فجأة بين يدى فلاحين أحدهما عجوز والآخر له وجه صارم وكان بسرواله فقط ·

ـ ياحرامية ياولاد الشراميط ·

كنت مفزوعا ، ورحت أحاول التخلص منهما · غير أنهما حملانى كجرو صغير من طوق جلبابى وسارا بى مشوارا طويلا ووجدت نفسى أمام الخفير وكانت دلال تبكى مثل طفلة ·· وحسن كان يرتعش ·

ـ أختى ياولاد الكلب ·

كانت الدموع تنهمر بغزارة من عينيها ، والمخاط ينزلق من أنفها الدقيق ·

ـ ياولاد الكلب ·· أختى ·

صفعنى الخفير على وجهى ، وراح بيده الاخرى يضرب أختى فوق مؤخرتها ·· قالت واحدة من النساء :

ـ كفاية ·· كفاية ياشيخ على ·

ابتسم الشيخ على ·· تركها من تحت ابطه ·· سقطت على الأرض ·· زحفت قليلا على يديها النحيفتين . تمخط الشيخ على · ثم اختار حسن . حمله الشيخ على بعد جهد . وتطوع فلاح أصلع له أنف غليظة وقال وهو يمسك به :

ـ عشان يتأدبو ومايطلعوش حرامية ·

قالت سيدة عجوز :

ـ ماتربوش ·

وصرخ حسن ، كانت العصا بحق غليظة ، صرخ مرة أخرى، لوح بقدمه فى الهواء فطار صندله البنى ·

كانت الشمس حامية وقاسـية ، وكنا فى وسعاية بالجنينة لا تظللها أشجار · جرى حسن ، والتقط صندله من فوق الأرض، وجرى قليلا وانتظر دورى ·· ثم حملنى الشيخ على ، رائحة عرقه تنفذ من تحت الابط كريهة وحارة ، وكان صدره يعلو ويهبط ، وكنت بصدغى أتحسس حافظته تحت الهدوم ·

وسعد يصرخ مستغيثا بأبيه · تقدم الخفير منى وقال وهـو يزغرلى :

ـ مش عايز تحرم ؟

لم أرد ·· كنت أريد أن أسـبه وأجـرى ·· كنت أريد ـ أيضا ـ أن أضربه فى صدره بلكمة قوية · كل الفلاحين بأقدام حافية غليظة ، والنسوة التففن حولنا وكن يضحكن بصوت عال ، وقالت واحدة لا أعرفها :

ـ مش ده الواد بديع ؟

قالت بنت كبيرة وليست جميلة :

ـ يخيبك روح ساعد أبوك فى الغيطان ٠

رد عليها الخفير :

ـ أنا ح خليهم يبطلوا اللعبة دى ٠

كأنما ينتظرنا من زمن بعيـد ، ويتربص بنـا ، كان فرحا وكأنما انتهى من أمر يقلقه ٠ نادى بصوت خشن :

ـ هات العصاية ياحامد ٠

الحاج حامد : الذى يرعى أشـجار العنب والذى يسـقيها ويسمدها ٠ جاء بالعصا ، وكانت فرعا من شجرة ضخمة ٠ انتابنى الفزع حين رأيتها ٠ أولاد الخنازير يضربوننا لأننا صغار ، حين أكبر سأركله بقدمى ، صرخ سعد :

ـ والنبى آخر مرة ٠

يا لك من حمار يا سعد ٠٠ كيف أنها آخر مرة ٠٠ أننا نحب العنب ، وسنعود مرات عديدة ٠٠ قلت فى نفسى : يا جبان يا سعد ، صرخت أختى دلال كالنساء عند المقابر ، وضحكت النساء ورحن يحكين عن أن العنب يموت عند الصراخ والعويل ٠ وفجأة انشقت الأرض عن الشيخ على ورغم أنه الوزان فله عين فوقها نقطة ٠ تقدم فى حذر ثم حمل دلال تحت ذراعه اليمنى ، ذراعه طويلة وضخمة وأختى كانت تحت أبطه مثل قطة ، ترفس فى عصبية وتولول ، ولكن نزلت العصا الغليظة لتبكيها حقا ٠٠ انزاح جلبابها وانحسر عن نصفها الأسفل ، بان سروالها المتسخ الممزق ، وكأن بى نارا تاكلنى ٠٠ أحمر وجهى ٠٠ زعقت فيهم ٠

ضربة مثل كى النار ·· لو أخذت عصا ثانية لمت ·· ثم : واحدة وثانية ·· ورابعة على مؤخرتى ، وفلاح أمسك برجلى لأنى كنت أضرب بها الشيخ على ·· لم يتركنى الخفير الا بعد أن تعب ·· سقطت من تحت الابط مهرولا ·· وأنا أسبهم جميعا ·· وجريت الى دلال ·· كانت بالخارج ، وحسن يحمل صندله بين يديه، والحصى فى جيبه لم يستعمله بعد ·

جلست على الأرض ، ثم جاء سعد يهرش فى شعره الأكرت ويبتسم وهو يمسح دموعه بكمه ·· ولم نعد نبكى ·

جلسنا تحت شجرة كبيرة ـ لا أعرف اسمها ـ وقلنا انهم أولاد كلب ، ويريدون أن يأكلوا الجنينة ويحرموننا من العنب ·· ثم سرنا قليلا ، كانت الشمس تميل ·· وحرارتها هادئة ·· والنسمات كانت لطيفة ، وعيوننا لما تزل محمرة من البكاء ·

النسوة ـ يحملن العنب ·· والحمير تحمل العنب ·· العنب شهى ولذيذ ·· له طعم السحر ، من يعرفه لا بد أن يأخذه ، ويحبه أكثر من دلال ·· تلفت الى دلال ·· كان شعرها منكوشا ·· وعيناها تبرقان ·· قلت لها :

ـ بكره ندخل الجنينة :

أومأت برأسها : نعم ·

قال حسن :

ـ نعمل فتحة بالسور ·

ـ أيوه ·· لازم نعمل فتحة بالسور ·

ضحكت دلال ·· ثم أخذت تتقافز مثل عنزة وأخذت تسبقنا على الطريق الترابى ·

ونحن نعرف السكة ·· ولن نكف عن مشوارنا اليومى ·

كان التراب دافئا ·· وحانيا ·· والترعة أخت الطريق لا تفارقه ·

المـــوت والعصـــافير

كنت أعيش مع أبى فى حجرة فوق السطح ، كنا وحيدين ، أرعاه ويرعانى ، نأكل معا وننام معا ، وحين نمدد كنت أقرأ له كتب السيرة وعنترة والأغانى ، كان يحب الكتب وكنت أحب الكتابة ٠ فى اصباح الصيف نخرج على السطح أمام الحجرة بعد الفجر مباشرة نظل نتحدث ونشرب الشاى حتى نستحم بالشمس الهادئة التى كنت أتأملها فى فرح وكان أبى الكفيف يحسها بفرح أيضا ٠

كان يضع يده على رأسى ويحدثنى عن زمن قديم كان الناس يأكلون فيه اللحم والسمن والبيض بلا حساب ، وكان يحدثنى عن جنيات النهر وأنواع الأشجار ويعلمنى القراءة والهجاء ، وعندما أنام بجواره كنت أتمنى أن يأخذنى فى حضنه كطفل ، وأدفس رأسى فى صدره وأستمع لأنفاسه ، كان يربت على ظهرى لو قلت آه ٠٠ وعندما أعود من عملى أجده هو العجوز قد أعد الطعام وفرش المنضدة بورق الجرائد ٠

كنا نعيش معا فى حجرة واحدة فوق السطح ، سقفها بعروق خشب ضـــخمة ، ما بين هذه العروق حطت العصـــافير وعششت

وباضت وفقست ، كلما هممت بطردها يتشاجر معى أبى ، وعرفت بعد ذلك ان العصافير تؤنس وحدته ، ولما كنت أدخل أحيانا عليه فجأة أراه رافعا رأسه متصنتا لصوت العصافير فى سعادة ٠

ولما مات فى مساء يوم كريه قاس وبارد ، بكيته بشدة ، خبطت الحائط ، بكيت عليه وعلى نفسى ٠ لم أر شيئا سوى وجهه الأسمر وشعره الأبيض ، كان نائما فى هدوء واستسلام ويكاد أن يبتسم ٠ أضأت المصباح وسهرت بجواره طول الليل فى الحجرة التى فوق السطح

كنت تأخذنى وتسافر بى بعيدا ، وتلف بى الدنيا فأرى الاسكندرية ، والهند والجان وأشجار الكافور ، وكنت تحفظنى الشهور القبطية والعربية ومواعيد الزرع والحصد والمواويل القديمة، وفى كل عيد تشترى لى قميصا وبنطلونا وحذاء يلمع ٠

كنت أحدثك عن الشوارع والناس وعن نفسى وكنت لا أحكى لك ما يضايقك ، ولم نختلف سوى فى حكاية العصافير هذه ٠٠ وحكاية الكلاب فأبى يكره الكلاب ولا يخاف منها وأنا أحب الكلاب وأخافها ٠

كنت أجلس بجواره هو العجوز فيقول لى وهو يبتسم :

ـ أحب العصافير والناس ٠٠ كن طيبا وحنونا ٠

فأبكى على صدره ٠

ـ وماذا تريد يا أبى ؟

لم يطلب منى أنا الموظف الصغير أن أشترى له الجلابيب ولا أكل معين ، كان لا يطلب ولا يريد شيئا ٠٠ ويهمس :

ـ صحتك ٠

فى أيام الشتاء كنا نجلس على السرير ويسألنى هو الكفيف :

ـ ما أخبار المطر ؟

أقول له :

ـ تمطر الآن بشدة ٠

ومن خلال الزجاج أحكى له عن الشارع والطين والطيور المبتلة والدواجن التى ترتعش فوق الأسطح ، وطلاء الجير الذى يتساقط من على واجهات الدور ، وعن الرجال وهم يغوصون فى الوحل لنشل الماء ، ثم أنهض من جوار النافذة الزجاجية وأعطى لوابور الجاز نفسا لتقوى ناره ونستخلص دفئا بلا دخان ٠ وكانت حجرتنا الوحيدة فوق السطح تدفأ بسرعة فنجلس وأقرأ له فى تذكرة داود وطهارة القلوب والجبرتى ، ويظل هو مبتسما ، ثم يمدد رجليه عن آخرهما ٠ لم يكن يخلع الجورب أبدا حتى أثناء النوم ٠

ولما مات فى مساء ليل كريه ، جلست بجواره ، لقد مت معك يا أبى ٠٠ وبكيت ، ظللت أفكر فى الصبح القادم الذى لن نخرج فيه معا للسطح ، ماذا سأفعل ؟ أأخرج تصريح الدفن أولا ؟ أم أذهب الى عماتى وأعمامى الذين لا أعرف سوى أسمائهم ؟ أم أخرج على السطح وأبكى فيلتف حولى الناس ؟؟

وحين بان الخيط الأبيض من الخيط الأسود نهضت ، فككت اللثام من حول ذقنه ورأسه ، فبدا وجهه أكثر نضارة ، ولم تكف الدموع ، مشت يدى على شعر رأسه الناعم ، وبين الحين والآخر أخذت أقبل جبينه البارد ٠ وبدأ النهار يدخل من النافذة الزجاجية، وقفز عصفور فى زقزقة وسعادة ، فانتبهت للصور الملصقة على حائط الحجرة : حصان بنى يطير فى الهواء ، طفلة سمراء نوبية تبتسم ٠٠

منظر لطبيعة صـامتة . تاملت وجه ابى . فـكرت مرة ثانية ماذا سأفعل ؟

الـكفن .. قفز الى ذهنى فجـاة الـكفن ، كيف نسيت أهم الأشياء ؟ طارت العصافير .. حلقت وزقزقت . فقمت وفتحت لها النافذة ، كنت اريد ان اوقظ ابى واعطيه الشاى الساخن واشعل له سيجارة ، دخل الهواء وطارت العصافير ، كان الهواء نقيا وباردا، فلبست معطفى وشددته الى ، وعدلت نظارتى على عينى ، وتمتمت مرة أخرى :

ـ الكفن .

ممدد فى هدوء .. هدوء .. تمنيت لو نمت فى حضنه ، ودسست رأسى فى صدره ليحكى لى عن جدتى وأمى وأناس لم أعرفهم ، ويحكى لى عن فتح مصر وأحمد بن طولون ، وسكك لم أعرفها .

ذات ليلة صـــيفية جلست بجواره على السرير .. وقلت فرحا :

ـ أتعرف يا أبى .. سأتزوج بنتا بيضاء نحيفة .. ثم تنجب لى بنتا جميلة سمراء اللون مثلى ، وتجىء اليك ابنتى وتقول ازيك يا جدو .. ازيك يا جدو .. وتنط على حجرك وتمسك فى رقبتك وتلاعبها .. وتقبلك .. وتخدمك .

فدمعت عيناه التى تحملق فى البعيد وقال :

ـ يا ليت .

وبكى .

ثم قال :

ـ أريد أن تبكى على ابنتك وتمشى وراء نعشى ، وتتذكرنى ٠

ثم قال :

ـ أتعرف يا ولدى ٠٠ اعطف على بكفن طيب ٠
الكفن !!

والصبح يقتحمنا ، وأبى ممدد فى هدوء ٠

لا أنا ولا أبى نملك شيئا ، ها نحن بلا شىء سوى الحكايات والكتب والعصافير والحجرة التى فوق السطح ٠ لمن سأذهب ، ولمن أمد يدى ؟ سآخذ أجازة عارضة اليوم ، ثم أذهب لأشترى الكفن ، كيف ؟؟ تحسست معطفى ، ففتحت الباب على الفور ونزلت أعدو على درجات السلم ٠

بعد أن تركت الشارع ترددت هل أغلقت باب الحجرة ورائى أم لا ؟ ولكن لن أرجع الآن ، وجريت ٠٠ جريت الى بائع الروبابيكيا ٠٠ وقفت ألهث أمامه ، دكان صغير به ملابس قديمة وتلفزيونات وفيديو وعطور وأحذية ، يبيع القديم والجديد ويشترى ويرهن ، كنت ألهث ، خلعت معطفى وساعتى ٠٠ ساومنى كثيرا ٠

وكان يشرب الشيشة ويمضغ اللادن ويستمع لمطرب سوقى فى مسجل ضخم بسماعات عديدة ، واشترى المعطف والساعة ٠

وحين دخلت عند تاجر الأقمشة طلبت أحسن قماش كفن ، وأخذته وجريت ، وقاولنى المغسل ، وموظف الصحة أخذ منى سيجارة ، وكان ثمن المعطف والساعة قد نفذ ٠

ورجعت جريا مشغولا على أبى ، الذى نسيت هل أغلقت عليه

الباب أم لا ؟ صعدت على درجات السلم فى فزع ، وفى الدور الثالث كان السطح ، ووجدت الباب مفتوحا ·· يالله ·· ودخلت فاذا أبى ممدد فى هدوء ، والطيور تملأ الحجرة · دجاج ينقر الأرض ويرف بأجنحته ، وديوك حمراء وبيضاء على الكراسى وديك تحت رجل أبى يصيح بصوت عال ، وديوك رومى تكركر ، والبط نزل تحت السرير يتبعه صغاره ، وعصافير لونها أخضر وأصفر تتقافز فى الأركان وتزقزق ، تحط وترفرف فوق أبى ، كل الطيور تتقافز ، تضرب أجنحتها الهواء وتغنى أغنيـة واحدة وأبى هادىء تماما يـكاد أن يبتسم ·

جففت عرقى وأخرجت الطيور ، وجلست على الكرسى ، مات أبى ليلة أمس ، نهضت اليه وخلعت الجورب عن رجليه ، ثم بكيت بشدة ، لو كان لى جد أو جدة لوقفا بجوارى الآن · ولكننى كنت وحدى فى الحجرة التى فوق السطح ·

عرف الجيران بموت أبى عندما جاء الرجل المغسل ، وعندما وجدوا النعش ، وشموا رائحة الشيح ، فساعدتنى بنت بيضـاء اللون طيبة القلب فى احضار الماء من الدور الأول ، وكانت سيدة نحيفة سمراء تبكى بتشنج ، والتف الجيران حولى يسألوننى ان كنت أحتاج لشىء وعرضوا على نقودا ، لكننى شكرتهم جميعا وشعرت بأن الجو حار وبأننى سأختنق أو أموت ·

وقفت على الغسل ومعى جارنا المدرس نقرأ : قل هو الله أحد ، وأخذوا فى غسل أبى ·· فى هدوء ممدد ، وجهه أكثر بياضا عن ما أعرفه ، يكاد أن يبتسم ، ها أنت ذا خال من الأمراض والوهن ·· بينى وبينك المسافات ، واللقاء يوم اللقاء ·· يقلبونه على جنبه الأيمن ثم الأيسر ، يشده الرجل من ذراعه فلا يقاوم ·· ها قد استراحت شقاوتك وكف تعبك ووقف نبض قلبك الذى نبض حياة طويلة بالحب لكل الأشياء ، وتوقف لسانك عن حكاياتك البديعة ·

أحضروا الكفن ·· طلبك يا أبى ·· لم أمد يدى لأحد ·· بعت ما أملك حتى ·· غطوا جسده كله ·· ايه يا أبى ·· ألن أراك بعد الآن ·· المسافات بينى وبينك ·· والذكريات والطفولة والشباب والشوارع والبحار وأشجار « البنسيانا » ·· ثم على غفلة منى غطوا وجهه ·· اختفى وجه أبى ·· آه ·· وسقطت على الأرض فى هذه الحجرة التى فوق السطح ·

عندما عدت من المقبرة كنت متهالكا ·· لا أصدق اننى تركته وحده ولن أعود اليه أو يعود الى ·· اللقاء يوم اللقاء يا أبى ·

الشمس ضايقت نظرى ، صعدت درجات السلم باعياء وكنت أسمع من كل الشقق صوت القرآن عاليا ·· وكنت متعبا ·

ولما فتحت الباب لأدخل الحجرة وجدت البنت البيضاء فى انتظارى ، وأمامها صينية صفراء اللون كبيرة ومدورة وعليها جبن وزيتون وطماطم وأرغفة ، نظرت لوجهها الطيب وجلست ، قالت لا بد أن تأكل فأكلت واللقيمات تنزلق بصعوبة ، صنعت لى شايا على وابور السبرتو ، ثم قمنا أنا وهى لنرتب الحجرة ، أخذت هى تتأمل الصور التى على الحائط ، ثم وأنا أمد يدى فيما بين الحائط والسرير وجدت صرة صغيرة من القماش ، لم أكن قد رأيتها من قبل ، جذبتها ·· شممتها ·· رائحة قديمة مختلطة برائحة أبى ، فتحت الصرة الصغيرة أمامى على السرير ، فوجدت ختم أبى ، وحصان الشطرنج ·· واطار نظارة ، وصورة لى مع أبى وكنت صغيرا ·

وكانت العصافير تزقزق بشدة فى هذه الحجرة التى فوق السطح ·

الحـــــارس

انتهى يوم الخميس ، وأضواء المدينة تخفت عند المنحـدر ، تموت فى المقـابر والنخلات العالية تغوص فى الليل ، والكشـك الواطىء يستمتع بدفء الجمرات ووابور الجاز ، وأنفاس ثلاثة رواد ، والحارس انكفأ على منضدة صغيرة يعد نقوده ٠

يلتف العيال حول أهل الميت ويقولون فى تسول :

ـ رحمة ونور يا خاله ٠

يزعق هو فى العيال ، ثم يجلس على طرف الحصيرة ويتحدث فى تودد ، ويأخذ نصيبه ٠

ـ مثواهم الجنة ٠

وينتهى يوم الخميس ، وتعود المقابر له وحده بلا شريك سوى موتى وأشجار ٠

رمشت عيناه والضوء كاب ، بعثر النقود على المنضدة الخشبية المتهالكة ٠

القرش فوق القرش ·· والشلن ·

جاءه صوت مرتعش :

ـ ودفنتوه بعد العشا ؟

ـ والدنيا كحل ·

الكشك ملتصق بجدار المقابر والحارس يجلس وظهره للمقابر وينظر للشارع المظلم الخالى ، رائحة المعسل ورائحة الشاى المغلى والدفء يدفع بالحارس أن يجلس ، والوعد ·· هذا الوعد المفاجىء فى آخر العمر يدفع به للجلوس ولعينيه التشبث بالشارع المظلم ·

رشف من « القرفه » ثم وضع النقود بحرص فى جيب البالطو الكاكى وشد طاقيته الصوف حتى أذنيه ، ودعك حاجبيه الكثيفين ببطن يده النحيلة ·

سأله شخص بدين :

ـ أنت قصصت شعرك وذقنك ·· لعله خير ·

مشت يده على ذقنه الناعمة وابتسم ، وطلب الجوزة ، ثم أخرج من جيبه ورقة صغيرة جدا من السلوفان ·

على جدار الكشك صـورة ملونة للممثل « محمود ياسين » وصورة لراقصة ·

سأله الصوت المرتعش :

ـ ولماذا دفنوه ليلا ؟

قال الحارس وهو يفك السلوفان :

ـ لما أخرجوه من البحر لم ينتظروا عيون النهار فدفنوه ٠

ثم وضع قطعة الحشيش فى الحجر ٠

قال صاحب الكشك وهو يغسل أكوابا فى دلو صغير ٠

ـ اكرام الميت دفنه ٠

قال العجوز ضاحكا :

ـ دفنوه جنب حجرتك ، ستنام الليلة جنب واحد « طازه » ٠ وضحكوا جميعا ٠

أخرج النفس وقال :

ـ أنا لا أخاف ٠٠ تركنا الخوف من زمن بعيد ٠

كان يهرب وينام فى المقابر ، يهرب من أبيه وأمه وشغله عند صانع الحصر ، كان لا يلبس فى قدميه غير القبقاب وعلى جسمه غير الجلابية ، ووجد فى المقابر خوفا وراحة ودفئا غريبا ٠ وفى أيام الخميس يكون الرزق كله ٠

مد الحارس يده ـ كأنما تذكر خوفه القديم من الليل الطويل والعفاريت التى يسمع عنها ـ مد يده وسحب الكوتشينه ، فرها بين يديه المعروقتين ٠

وهمس :

لا فائدة ٠

ضحك العجوز ، وبانت اللثة الخالية من الأسنان ، وقام ليجلس أمام الحارس بدون كلام ، وفرك يديه ٠

ـ شاى على حساب الدور ٠

ضـــحك العجوز أكثر عندما قلب الورق ووجد « الكومى » يطالعه فى دوره الأول ٠ هكذا كان يهرب متحديا خوفه ، يلبد فى المقابر ، ينام مرعوبا ويقوم فرحا بالنهار يتحسس الدروب التراب ويرافق الموتى والأسماء المحفورة على الرخام ، وتعرف على الهاربين مثله والمتشردين صادقهم ولاعبهم « الكوتشينة » وهزمهم ، وأتى بوابور سبرتو وشربوا عنده الشـــاى ، ثم أصـــبح يستضيفهم ، ويأنس المكان ويتمدد فى استرخاء وبلا رهبه على التراب الناعم محدثا أحيانا الموتى وأحيانا نفسه ولما خرج ذات يوم ليشرب الشاى فى الكشك كانت يده ممسكة بعصى من شجرة قوية شرب الشاى وعاد ليجلس على باب المقابر ، وعندما حاول شاب أن يدخل المقابر فى غير ميعاد زيارتها هم واقفا فاردا ذراعيه ممسكا بعصاه وسأله فى تحد وقوة ٠

ـ الى أين ؟ ممنوع ٠

من يومها وقف على باب المقابر حارسا لها ، منصبا نفسه حاميا ومدافعا عنها ٠ يحكون عن اخفاء المسروقات فى المقابر وعن الزنا والهروب ولو حاول متشرد أو مجرم أن يلوذ بالمقابر يوما لوجد الحارس فيدفع له أجرة ليله الطويل ، ويلعبان الكوتشينة ويشربان الشاى ويتحدثان عن الزمن القاسى ٠

انهزم الحارس ، ورمى آخر ولد فى يده ٠٠ وقال زاعقا :

ـ العجوز تعلم السرقة ٠

ثم مد يده للجوزة ٠

قال ذو الصوت المرتعش :

ـ أدفن الميت فى الليل حلال أم حرام ؟

قال الحارس فى زهق :

ـ كله زمن ربنا ·· وكلها أرض ربنا ·

ونهض ، وسألوه الى أين ·· فقال أن الجو سيبرد ، وشد عصاه وخرج ·· فضحك صاحب المقهى وقال :

ـ هكذا ·· كلما انهزم دخل لينام فى مقبرته ·

فى الخارج كان الهواء باردا ، شد طاقيته حتى أذنيه ومضى على مهل ، ولكن ليس ناحية المقابر بل ناحية المنحدر ·· سار كثيرا بخطى وئيدة ·· ثم وقف يتأمل الهابطين مع المنحدر ، لعلها فيهم ·· هى ستعرفه ·· هو نسى وجهها ·· لم يرها الا اليوم ·· حيث كانت فى زيارة قريب لها ميت ودار الحديث بطيئا حتى تعرف بها وبفقرها ·· وبحاجتها لمكان ·

قالت له أنا مقطوعة من شجرة ··

هى ستعرفه ، وهو لم يعرف ملامحها ، غير أنها نحيفة وطويلة ، تذكر جيدا ، قال لها أنا فى هذا الكشك ·· الظلام يمحو الملامح ، ولماذا تأخرت ·· لقد فرش الحصيرة ورتب الأشياء بجانب الجدار وحلق ذقنه وشعره ·· وضع يده فى جيب البالطو ، زمن طويل مر بلا حلم ·· لماذا جاءت الآن ·· ولماذا سألته عن مكان ؟

خطى بتؤدة ·

قال لها : نفسى فى طبق طبيخ وتأتى به فى صحن من الصاج ·

قالت له : سآتيك بطبق وبه مطبوخ اللحم بالبطاطس والطماطم ·

قال لها : عندى مكان دفىء ٠

ولم تأت ٠

ارتعشت يده الممسكة بالعصى ٠٠ نزل مرة أخرى مع المنحدر، عند الكشك تحاشى العودة لأصحابه ، فتخطى عتبة المقابر ليدخل ٠

دروب من التراب الناعم ـ يعرفها ـ ومقابر فى صف واحد ، ومقابر تعترض الطريق ، لكنه يحفظ المقابر ، شجر النبق ٠٠ والمستكة ٠٠ والصبار ٠٠ وست الحسن المتسلقة ٠

سنوات حفظ فيها المقابر وأصحابها والشيوخ والعيال وقارىء القرآن ، والبنت الغلبانة التى تحمل فوق رأسها برميل الماء ٠

ـ أرش ماء يا عم ٠٠ أرش ماء يا خالة ٠

هو يحب أيام الصيف ، تكون المقابر جنة ، ترش البنت الماء وتذهب الى حجرته وترش الماء فيهبط الغبار والتراب ، وتدس فى جيب جلبابها قرشا بفرح ، وساعات تجلس معه تحكى له ويحكى لها ويسقيها كوب شاى وهى تسرق له من أمها طبق المحشى الذى يشتاق له ٠

كتل سوداء تحمل وجوها حزينه ، والذكريات تخرج من الأفواه بلا توقف ، تخرج فى تدفق وألم ٠

قالت له امرأة تشبه أمه التى ماتت من زمن لا يعرفه :

ـ خذ بالك من لحمنا وعظمنا ٠

نظر لها طويلا ، تشبه أمه تماما ٠

ويفرح أيام الخميس ، يفرجها الله عليه ، يتسامر مع الناس ،

هم يحبونه ويعطفون عليه ويعطونه الفلوس ، ويترحم على الموتى ويجمع الرحمة من الكعك والقرص والبلح والنقود ويشترى الشاى والسكر ويضعه فى حجرته المقبرة ٠

كانت مقبرة ٠

حجرة خالية لها سقف متين وجدران ملساء وبها حجر رخامى زمان كان أصحابها يقرأون القرآن ويخضرون للميت ، كان بها القش والصبار الأخضر ، غير أن أهلها انقطعوا عنها وتركوها وجلس هو فيها ، فرش حصرا واشترى وابور سبرتو و « براد » ووضع بها مرتبة وصندوقا خشبيا وعصاه ، وأصبحت حجرته ٠

فى الليل يضىء مصباح الجاز ويسمع نشرة الأخبار فى الراديو الترانزستور وينام ٠

فى الصبح يقوم توقظه زقزقات العصافير التى تتكاثر فوق الشجر ويمشى على التراب المندى وينظر حواليه ، يحب الصبح والشمس ، يلف لفة بالمقابر ليرى ما حدث بها فى الليل البهيم ، وهو الذى عليه أن يحميها ويحرسها ويضحك أصدقاء الكشك ٠

ـ يحرس الموتى من ماذا ؟

ينهض واقفا ويقول :

ـ من الكلاب ٠٠ والحرامية ٠٠ وأهم شىء الكلاب ، ماذا لو سرق كلب جثتك ؟

ويضحكون ٠

يراجع على الأبواب والشبابيك ، ولو اكتشف سرقة باب أو شباك لا يفعل شيئا ويتمتم لنفسه :

ـ أولاد الحرام يسرقون الموتى ٠

ويمضى سائرا ببطء على التراب المندى ويخرج ليشرب الشاى والسيجارة ، ويجلس فى الشمس ممددا رجله ، ويحكى عن عفاريت لم يرها ٠

دخل الحجرة ، وجدها نظيفة ومرتبه ومجهزه لاستقبال المرأة التى ستأتى ٠٠ لماذا ضحكت عليه ٠٠ زمن طويل والوعد كاذب ٠٠ خرج فى غيظ ٠٠ خرج مسرعا ، وشق طريقه لخارج المقابر ٠

ضحك الصحاب ، قال العجوز :

ـ لماذا رجعت ؟

تلعثم قليلا ثم قال :

ـ سأخلص هزيمة دور الكوتشينة ٠

ضحك الرجل العجوز ، وقام دون كلام وجذب كرسى القش وجلس أمامه ، أزاح الحارس طاقيته عن أذنيه وفر الكوتشينة ٠

ـ شاى على حساب الدور ٠

ارتمى ظل باهت على المنضدة ، وكحت سيدة فى خجل ، فانتفض هو ، أتكون هى ٠٠ هو لا يعرفها ٠٠ هى ستعرفه ٠

قالت :

ـ مساء الخير ٠

وكانت تحمل على كف يدها اليسرى طبق صاج مغطى ، قام مسرعا ، لم يستأذن ، ولم يرم السلام ٠

همس لها فى الظلمة :

ـ أنت ؟

قالت :

ـ نعم ، جئت لك ومعى طبق البطاطس ٠

شدها من يدها اليمنى ودخلا المقابر ، وداسا معا على التراب الناعم ، تشبثت به خوفا ٠

شجرة نبق ٠٠ وأشجار مستكة ٠٠ ورائحة ٠

همس لها :

ـ بحجرتى حصيرة ٠٠ ووابور سبرتو ٠٠ وشاى ٠

فى الجنينـــة

فى وقت الأصيل قامت « أم سيد » من على الحصيرة وقالت لابنتها « ثناء » : يا ثناء افتحى الشباك وباب المندرة ، ومسحت وجهها العرقان فى ملاءة السرير المتسخة وخرجت وجلست على الدرجة الأولى من السلم يخبط فيها الطالع والنازل • دخل الحجرة الضوء ولم يبرحها الحر ، وحط الذباب فوق السرير وعلى التلفزيون الذى فى الركن فوق كرسى خشب عريض • خرج العيال من المندرة التى على يمين السلم ، وخرجت « ثناء » أيضا وأغلقت باب المندرة فهى تخاف دخول الفئران والحشرات لأن الأكل تحت السرير والهدوم على الكنبة •

« أم سيد » السمراء تتصبب عرقا وتلعن أيام الصيف مثلما تلعن أيام الشتاء ، وتلعن المندرة التى فيها تأكل وتغسل وتنام مع زوجها ومع العيال والتى بها سرير وكنبة وتلفزيون وكتب «سيد» تلعن فى سرها وفى العلن وتخبط العيال على ظهورهم وتسأل ربها الصبر •

خرجت المرأة ذات الجلباب المشـجر ورشت أمام الدار الماء

الوسخ ، وخرجت ذات الجلباب الأسـود ورشت الماء النظيف على الأرض وعلى العنزة المربوطة فى حديد شباك « أم سيد » ٠

« أم سيد » جسدها ممتلىء وروحها فى أنفها ، لا تكف عن السب وتكره الليل الطويل لشدة الحرارة وكثرة النفس ٠ قالت « أم سيد » للمرأة ذات الجلباب المشجر : كذا يوم يا امرأة نقول نروح الجنينة ولا نروح ٠

فرحت ذات الجلباب المشجر بفكرة الجنينة وقالت أنها لا تمانع ولا شيء سوى أن تضـع قدميها فى حذائها البلاسـتيك ٠ قالت أم سيد : يا بنت يا ثناء قومى املئى الزمزمية بالماء وهات الحصيرة حتى نروح الجنينة ٠ واستغربت من نفسها ، وقالت لماذا لا نروح الجنينة ٠

قفز العيال فرحا وعملت « ثناء » بهمة وبسرعة ٠

وحين سارت « أم سيد » تهز فى نفسها المرهقة شد العيال ذيلها وتبعتها المرأة ذات الجلباب المشجر وكانت تمضـع اللادن والمرأة ذات الجلباب الأسود وتجر فى يدها عيل نحيل وكن جميعا فرحات بحكاية الجنينة ٠

فى الجنينة قذفن بالحصى بعيدا وفرشن الحصيرة وجلسن بجوار أريكة حجرية تسكن فيها حرارة شمس النهار ٠ خلعن الطرح عن رؤوسهن ومسحن العرق ، قالت ذات الجلباب الأسـود : ليتنى جئت بالعنزة ، قالت « أم سيد » ربما يعود أبو سيد وأنا بره ٠ قالت المرأة ذات الجلباب المشجر أن زوجها فى الشركة من وردية ثلاثة وكذا المرأة ذات الجلباب الأسود وأحسسن بفرح ما ٠

الشـارع الطويل به ناس من كل شـكل ولون ، وعربات

ودراجات وعيال ، وفى الجنينة لم تكن نسمة هواء ولكنها أرحم من خنقة البيوت ٠

مددت البنت « ثناء » رجليها وركنت بظهرها على الأريكة ، زحلقت الايشارب الخفيف وبان نصف شعرها الناعم ٠ زحف الغروب بلون بنفسجى هادىء فخلعت « أم سيد » عصبة رأسها وهرشت قليلا فى شعرها الأشيب ثم شربت من الزمزمية ماء ساخنا وكذا فعلت ذات الجلباب المشجر ، وكان العيال يدورون حول حوض ناشف به أوراق وقش ٠

تزحزحت « ثناء » للأمام وخلسة نامت على ظهرها وانحسر الجلباب عن ركبتيها ورأت السماء الواسعة ، وتذكرت عبد الحليم حافظ وشادية فى فيلم لحن الوفاء وهما يغنيان فى جنينة غير هذه الجنينة واندهشت من أين تطلع موسيقى الأغانى ، ورأت نفسها « شادية » ورأت نفسها « نورا » ، وفرحت بالسماء الواسعة التى أخذت تغمق ٠

كانت « أم سيد » قد لمحت « ثناء » وهى تنام على ظهرها ، ولكنها لم تبال ، والعرق ما زال يتصبب ٠ تحدثن عن الدور الضيقة اذ كل شىء ساخن وحار حتى حنفية المياه والباذنجان وصهد الحيطان ، وعن الأزواج تحدثن فى تبرم وقالت ذات الجلباب الأسود : رحم الله أبى ٠٠ تصورى يا أختى زوجى يريد أن أخلع السواد ٠ ثم أخذت ذات الجلباب المشجر تتكلم عن الرجال والأجرة وقرفهم ٠

ليس فى الجنينة زهور ملونة ولا فسقية ماء ولا شجر ، ليس غير سور حديد مدبب مكسر فى بعض الأجزاء ، غير أنهن تمددن على النجيل وأحسسن بطراوة الأرض الطينية ٠ قالت «أم سيد» أن الشقق فى تمثيليات التلفزيون يتوه الواحد فيها وكل شىء ملون وبرح ٠ كانت تقول ولا تنسى أن تتحدث عن العرق الذى يغمر الوسائد فى

الليل الطويل ، ولعنت البق والناموس ، وتمنت لو تخلع جلبابها وتجلس عريانة ، فضحكن جميعا ، غير أنها بعد قليل استرخت تماما وتوسدت ذراعها وغفلت ٠

قالت « ثناء » لنفسها : لقد نجحت فى الاعدادية وسأدخل الثانوية ثم الجامعة فأعرف شابا جميلا له عربة ، ومعه سأعرف البحر والشقق الواسعة ، وأحست بنهديها فى هذه اللحظة فتقلبت ببطء ونامت على بطنها وضغطت نهديها فى النجيل ، وكان للنجيل رائحة ٠ غير أن ضربة من أمها أفزعتها فاعتدلت ونظرت لسواد الليل ٠

قالت المرأة ذات الجلباب المشجر : أن الأسطى « زين » تقدم لابنتها وهو العائد من السعودية وعنده الملون والفيديو وسيعطيه أبوه مندرتين فى دارهم العالية ٠٠ وأمه والنبى ست ولا كل الستات ٠

مرت لحظة هادئة عليهن ، تمنت كل واحدة لو أنها نامت حتى الفجر فى هذا المكان الواسع ، وأخذن يضحكن مرة أخرى ويتحدثن عن الرجال الغلابة أيضا ٠ ثم بلا مقدمات بكت ذات الجلباب الأسود وقالت : يا رب ألبس عليك السواد يا عبد الجواد يا زوجى ٠٠ الرجل يا أختى يريد أن أخلع السواد ٠

سرحت « ثناء » طويلا وركنت رأسها الصغير على الأريكة الحجرية ، قالت « أم سيد » فى نفسها : البنت تنام على بطنها وصدرها قد كبر ولا تستحم فى المندرة الا وحدها ٠٠ من اليوم سأقطع رقبتها وسأجعل من عينى حارسا عليها ٠ ونهرتها وقالت لها اعتدلى ٠ وكان الشبان يروحون ويجيئون وبعض العربات تمرق بسرعة وتخلف التراب والغبار عليهن ، وأعمدة الشارع تضىء مصابيحها بلون أصفر فاقع ٠

قامت « أم سيد » عندما سمعت فلاحة تنادى على التين الشوكى بكيزان العسل ، مسحت وجهها بطرف الطرحة ونادت على الفلاحة التى جلست وحطت الطشت الصغير ، وأخذت فى مساومتها حتى اشترت بعشرة قروش ونهضت الفلاحة وهى تدعو لهن بالصحة والعافية ، ودست « أم سيد » منديل الفلوس فى صدرها ، ثم وزعت عليهن ما فيه النصيب ، وابتلعن الكيزان ، وكن مسرورات ٠

قالت ذات الجلباب الأسود لا بد أن نأتى هنا كل يوم ٠٠ أنه أحسن من سجن البيوت ، وقالت « أم سيد » أن هذا الصيف شديد وسيقتل الناس والطيور والحيوانات ، وما أن فرغت من كلامها حتى رأت « سيد » قادما يجرى وكان يلبس البيجاما والشبشب ، وقال وهو يلهث : أمى ٠٠ جاء أبى ومعه ضيوف ويسألك عن مكان الشاى ٠ فامتعضت وقالت له : اجر اسبقنى والشاى فى خزنة الكنبة جنب علبة السكر ٠

انتفضت « ثناء » واقفة لأنها تذكرت أن الكنبة ليس فيها شاى ، ولما نهضت « أم سيد » ولبست الشبشب فى قدميها وخطت سور الجنينة ٠٠ ابتسمت « ثناء » وجلست على الأريكة الحجرية البيضاء ، وتنهدت ومددت رجليها ورجعت بجذعها للخلف ساندة على ذراعيها وصدرها يواجه السماء ، وكانت الأريكة لا تزال ساخنة ٠

الرحيل مجدول من الخوص

على الزجاج المغبش للنافذة رسمت شجرة وخطا وقمرا ٠ ولما طال بى القلق فتحت النافذة ، رحت أحملق فى الشارع الموحل والعيال الحفاة والعربات المتلكئة ٠

لا بد أن رسالتى لأبى قد وصلت ، الرسالة تصل فى ثلاثة أيام ، وها قد مرت سبعة أيام ، وأنا فى انتظار أبى ، قلت له يا أبى العزيز اننى أكره المدرسة وأحب الغيط ، وأحب لحظة انتظارى لطيور السمان ، وأعرف موعد هجرة النبى وأوان حصاد القمح ، ولا أحب المدرسة ٠ قلت له تعال خذنى يا أبى وساعدنى فى حمل العفش القليل وأحضر معك فلوسا لنحاسب صاحبة البيت وصاحب العربة الكارو التى ستحمل العفش ، اترك الناقة فى عنق أمى حتى أعود وأخوتى البنات سيقفن مثل الديدبان فى بطن الحقول يرقبن عودتى ٠

الكنبة الخشبية تحت الشباك ، هكذا شئت أنا ، حتى أطل من الشباك ، أرقب الحارة الضيقة فى الضوضاء والسكون ، فى عين النهار وصمت الليل ، أرقب الدار التى أمامنا المرسوم فوقواجهتها

كعبة زرقاء وطائرة حمراء وفيها تسكن سيدة سمينة تحرف العصبة ذات الدلايات على حاجبها وتقيم الزار ، أسمع الدفوف العالية اللاهثة ، وتأوهات النسوة أسمعها كاننى معهن ، أرى النسوة يغسلن أمام عتبات الدور الخرق القديمة ، والبنات وهن يخلعن ملابسهن ـ عبر النافذة ـ والنجار الذى يحفر بدقة فى يوم كامل نقوش دولاب ، الدق ورائحة الغراء ودخان النشارة المحروقة وسامية والبنات وأخى · آكل ، وأمشى فى شوارع البيع والشراء والكاسيت ، أتخبط فى الناس ، أتفرج على دور السينما ولا أذاكر ·

أنا لى كتبى ، ولى حلمى بالمساحات الفسيحة والهواء الذى يجعل أمى تنعس هناك بجوار الشجرة تحلم بأرضها المسروقة ، خمس سنوات ، أرسلت لأبى وقلت له يا أبى العزيز اننى أكره المدرسة ، ولم أقل له أننى أكره المدرسين وكتبهم وهذه المدينة ·

على المنضدة « الفورمايكا » أرص الكتب وأضع وابور السبرتو وأجمع صور الزهور ذات اللون البنفسجى ، ولما قلت لأبى يا أبى العزيز اننى أكره المدرسة أعرف أنه ربما يجيىء ليقتلنى بالشرشرة ، خمس سنوات بالمرحلة الثانوية ، أبى يريدنى طبيبا كأبناء الأعمام . أو ضابطا بنجوم تلمع ، دائما يقول : أنظر لابن عمك ·· أنظر لابن خالك · على الكرسى الخشب ثلاثة أكواب من الزجاج الردىء ، والكنكة ذات اليد الخشبية الجديدة · أخى الكبير الذى ترك أخوتى البنات فى الغيطان يشتغل فى السعودية بعقد عمل أرسل لأبى وقال له سأصرف من جنيه لألف على أخى فؤاد ليحصل على شهادة ولا يتعب مثلنا · على المسمار فى الحائط المطلى بالجير الفستقى اللون أعلق القميص والبنطلون والجلباب ، اليوم لبست بيجامتى ولم أذهب للمدرسة ، حلقت ذقنى وشاربى الخفيف ثم مسحت على ذقنى بنار السبرتو الأحمر · سيضربنى ربما ، أو يقتلنى لكننى على أى حال لن أظل بهذه المدرسة ولا بهذه المدينة التى نمشى فى طفح مجاريها من حارة لشارع ·· ورسمت شجرة ·

لقد جهزت ملابسى وحاجياتى فى ذات السلة الكبيرة المجدولة من الخوص بلونين أخضر وأبيض ، ذات السلة التى أتيت بها ، وسارجع ، قلت لصديقى « على » : لما سافر أخى للسعودية استخرج جواز سفر وفصل بدلة وبنطلونا وكان شكله غريبا جدا حين خلع الجلباب لأول مرة ، لم يكف « على » عن الضحك وقلت له سأرجع لقريتنا ، سأقفز الترع وأركب الحمار وأحصد القمح وساحمل الكتان على ظهرى حتى ظهر الناقة حتى سطح البيت ، وأربى الحيوانات الأليفة وأكلم الطير ، قال اننى سأخسر مستقبلى ٠

من سنوات خمس كانت سامية صغيرة ونهداها صغيرين صغيرين، بالكاد يرفعان الفستان عن صدرها وكان الشارع أقل اتساخا وكان هناك على هذه الدار البعيدة برج للحمام ٠ وفيما أنا أحملق فى الشارع رأيت أبى بجلبابه الزيتى ، والشمسية فى يده وطاقيته البيضاء على رأسه فارتجفت ، أحسست بعرق بارد يعلو جبهتى السمراء فجأة ، وداهمنى برد شديد بينما انعكاس الشمس فى الزجاج ضايق نظرى ، فجريت الى باب الحجرة وفتحت ، كان « على » يكنس حجرته المقابلة ولم يلتفت لى ، ووقفت على درجة السلم من الطابق الثانى وأطللت على أبى من فوق الدرابزين ، كح أبى وقال يا ساتر ، كانت أم سامية تجلس بسمنتها فوق الأرض محتضنة برجلين سمينتين عاريتين طست الغسيل ويدها تدعك فتتناثر رغاوى الصابون وقال أبى يا ساتر ٠

سأقول له أننى لم أبعث برسائل ٠٠ سأبكى وأقول له يا أبى لا أريد المدرسة سأشتغل معك فى الغيط مثل أخوتى البنات ، سأقوم ساعة الفجر وألم الندى بيدى والزهور البنفسجية الحية ، وأجمع السمك من غيطان الأرز ، حلمت ذات مرة اننى أسبح فى الترعة وأمسك فى يدى عناقيد عنب ٠ يا فؤاد ، نادى بصوت واضح دون أن يبص لأعلى : يا فؤاد ٠

نزلت بعض الدرجات ، كنت فى الظلمة ، قبلت يده التى مدها ، لم تكن سامية تحت ولا بجانب أمها ، لم يسألنى عن صمتى ولم يقل أزيك ولا شفت فى عينيه فرح اللقاء ، دخلنا من الباب هو ثم أنا ٠ جلس على الكنبة ، نظر أمامه على الحائط لصورة بنت وجهها نحيل وتمسك بندقية ، وضع الشمسية على المنضدة ، ثم قام ببطء وشد الصورة من على الحائط فهوت على الأرض ، عاد للكنبة ، مسح جبهته بمنديل أبيض ، الحجرة ضيقة وأنفاسى تهزها هزا ٠٠ خفت أن يضربنى فجأة على صدغى ، قال : اعمل شاى ٠ قمت ٠٠ انحنيت ٠٠ أعطيت للوابور نفسا ، تناهى الينا أذان العصر من المسجد البعيد ، سامية كانت تسمع ضربات النفس للوابور ، وتسمع أرجل الوابور حين تزيق فى الأرض المبلطة ، كانت عندما تسمع تطلع مسرعة وتقول لى أعمل لك الشاى ، وتنحنى ٠٠ ويبان صدرها ، من يومين صعدت وصنعت لى شايا بنعناع ، وعمدت أن ترينى حمالة صدرها الجديدة التى لبستها لأول مرة ، حمالة سوداء تضم النهدين فى طراوة ، كنا نشرب الشاى معا واظل أحكى لها عن الجمعة اليتيمة والسبت المقدس والأحد الدامى ، ولما تشرد أحكى عن تماسيح تأكل الزهور وأسماك تعشش فى الشجر ، وكنت أحضنها وأداعبها فى هوس ، لاحظت من يومين أن جسدها امتلأ ، نظرت للباب فى قلق ، ولم أسمع وقع أقدام على درجات السلم المظلم ، شرب أبى الشاى وقلبى يدق بعنف ، هربت منى الأشعار الشجاعة وأحسست بثمة ألم فى صدرى وضع الكوب ، نظر فى السقف وفى الأركان ، نظر بعينين جامدتين للسلة المجدولة بالخوص ذى اللونين الأخضر والأبيض وللكتب التى ليس عليها النسر ٠ ثم قال بعد طول صمت :

ـ سترجع ؟

سنوات خمس وأكتب له يا أبى العزيز تعال خذنى معك ، فكان يأتى ويضربنى ويفرج على الجيران وأستمر فى دراستى وأرسب

ولا أحب المدينة ولا محلات « السوبر ماركت » ، خمس سنوات وأخى يرسل الملابس اللامعة بينما أخوتى البنات حتى ركبهن فى حقول الأرز ، لأخوتى البنات أياد خشنة وشعر ملبد وعيون لم يمسسها الكحل ، سنوات خمس أرسل له ويضربنى ولا أقول له سر الكتب التى لها أغلفة ملونة وليس فوقها النسر ٠

ـ سترجع ٠٠ سأقول لهم ٠٠ رجعت بالخائب ٠

ووقف ، شد جسمه كسيف ، هربت من عينيه كل الطيبة القديمة والحنو القديم ، لما كنا نحمل البرسيم على ظهورنا ، ونأكل « أبو الفرو » فى الشتاء ونشوى الذرة فى دفء مضى ، لم يحدثنى أبدا ، ظل واقفا ثم اتجه للشباك وظل واقفا يطل على الشارع ، غامت الشمس ، حملت السلة ، ثم وضعتها ٠٠ حملت صورة البنت ذات الوجه النحيل ودفستها فى السلة المجدولة من الخوص ، وضعت الأكواب داخل بعضها ، سعلت ٠٠ سكون ٠٠ رائحة الغراء ٠٠ سأعود وأزرع بصل النرجس وأقطف عسل النحل ٠٠ زعق مشيرا بيده :

ـ يا ريس ٠

قال وظهره لى :

ـ العربجى وصل

بلعت ريقى بصعوبة ، العربة الكارو ٠٠ والكنبة الخشب ، شممت رائحة البيت ، تلك الرائحة المختلطة برائحة الجير وزفارة السمك ورائحة الغراء ٠ اتجه أبى للباب ، نزلت درجتين من السلم، تعثرت قدمى ، كانت سامية تحت ، تنظر لى بعينين براقتين وترجع برأسها للوراء حتى ترانى ، نظر لى أبى ، رأيت كما لو أن ثمة دموع بللت وجهه من وقت لا أعرفه ٠

الحـــــريق

مرت الليالى طويلة ، ومجهدة ، السرير لا يتحرك من تحته ، ولا هو يبرحه · وما عادت الشمس تقف على الشباك · أين الشمس يا جميلة ؟ يسأل ·· ما مرت أسراب الحمام ورائحة التمرحنة ودعت المكان ·· كان يمد يده ـ التى لا تصل ـ للمكتبة ذات الخشب العتيق والكتب العتيقة والنادرة والملونة ، يتحسس الأشياء فى بعدها ·· ويشمها ويضمها بعينين كليلتين ، وهى الزوجة تجرى وتسـأل الأحباب والأصـحاب ·· تدق الباب ·· تقول أغيثوا سيد ·· يا جميلة أدخلى الأهلة من شباكى وهاتى السمك حتى أعطيه ألوانه الحمراء والصفراء ، وتحت الشجرة يقف المسيرى وحده بعيدا تحت لون البنفسخ منتظرا الغروب متكئا على عصاه فى حالة انتظار ليحط فى عتمة الليـل بقلب دار سـيد ، والزوار يربطون الحمير خارج الدار فى أوتادها ، ويركنون دراجاتهم ، وبعضهم يأتى فى « كارتة » هكذا الرجل سيد له من الأصحاب العجائب من ذوى الأشكال الغريبة واللهجات المختلفة ، حتى ظنت زوجته الجميلة أنه يستحضرهم من كتبه ، وهو نائم عرقان ومجهد يكز على أسنانه بين الحين والآخر ويقول عينى ·· يا زوجى عينى ·

ولما يحط الليل بهدوئه وثقله لا ينام ·· يلتف فى الغطاء ولا يكاد يبين وجهه النحيل فى الضوء الكابى · نيال طويله ومجهدة تحت رأسه الصحاب وفى مقابله السرير توجد المكتبة العاليه العاليه ، ها هى ذا الكتب تتنفس ، ورائحة الورق يعرفها وتعرفه وتذهب اليه ، قال لزوجه الفلاحة اننى لن أموت الآن ، وزوجه الفلاحة لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، لكنها تحب كتب زوجها ، تنفض عنها التراب وتلمع زجاج المكتبة الذى ترى من خلاله كتبا حمراء وسوداء وبيضاء ، لم تتفرج سوى على صور ألف ليلة وليلة ذات ليلة طيبة متفجرة بالحب ، وحين يصحو فى الليل يطلب منها فنجان القهوة ، ويشكو من ألم عينه ، فاجأه ذات ليلة لم يعرف سره أحد ، ولم تنفع معه القطرة البيضاء ولا الزرقاء ، يشرب القهوة وينادى على زوجه جميلة ويهمس فى عاطفة أن الكتب قيمة ونافعة · فى المقاهى ينتظرونه وفى الأجران ، آخر الليل يرجع وأول النهار يخرج ، يصرخ المسيرى فى الحوارى والقرى يا بن الشياطين · تربت عليه جميلة بحنان وتقول نعم ·· الكتب نافعة وتهز رأسها نعم نعم · وتجرى الى المندرة الثانية لتحلب العنزة البيضاء ، وتملأ المسقة للبط ، وتذوب يدها فى دفء بيض الدجاج وماذا يفيد النقاش والخناق مع الرجال ؟ الغربال الكبير فوق المكتبة ولفات لورق قديم لا تعرفها ومفاتيح قديمة ·

يئن على سريره فتهلع القلوب ، وهو الذى لم يشكو ألما من قبل ، همس لصاحبه عينى يا صاحبى · هذا الخريف ثقيل ، قال صاحبه وانزوى يدمع والشجرة قائمة ·

كانوا جالسين على الكنبة يرتدون الجلابيب والأحذية والبلغ ويحدقون فيه ، كانوا جالسين وأجمعوا على أن الشيخ المسيرى سيأتى ، وكان الشيخ المسيرى فى هذه اللحظة تحت الشجرة متكئا على عصاه لا مفر منى ·· أعرف اننى ذاهب اليه والحساب طويل وأنا فى انتظارهم ·

يعرف انهم لا يعرفون ، عيون متلصصة ويد غشيمة ولا روح ، غير أنه لم يرفض ، ماذا يستطيعه المسيرى ؟ الشباك واسع يواجهه عند الحائط السرير والرجل ، أمام الدار مساحة واسعة فيها شجرتى تمر حنة ، واحدة تمر حنة كبيرة تظلل الشباك ، تملأه خضرة ورائحة زكية ، كان يركن بظهره للجدار ويظل يحدق فى الشفق الأرجوانى والصبح الأبيض ثم ينهض على الكنبة الخشب تحت الشباك ويقفز كطفل ويشد زهر التمر حنة ويشمه ويضعه فى أذنه وفى القلة ، ولما مرض من ليال عديدة طلب عودا من التمر حنة وطلب من زوجه أن تضعه تحت رأسه ، وضعته ثم سرقته لان هذا فأل سيء وظلت تبكى بين أبنائها الذين بكوا أيضا ٠

كان يرقب الليل والشجرة والنهر ٠ والليل ينسحب الآن ، أمسك يد زوجه ، يطفو اللون الأزرق ليصبغ كل الأشياء ، رأى زهور التمر حنة بلون قاتم والنهر قطعا من الثلج تدفع بعضها ، الشجرة تكبر تكبر تكبر وتعلو تعلو ، تجردت من كل أوراقها ، تعب سيد من الأعداء والصحاب ، مسحت زوجه على شعره الخشن بيد طيبة هذا الدماغ الناشف ، تمتمت : يا رجلى الطيب ، همس سيد : ثلج ، ردد : الشباك ٠٠ الشباك يا جميلة ، ها هى الحرباء بألوانها الزرقاء والخضراء والبيضاء تمشى على الشجرة غارزة أظفارها فى قلب الشجرة ، وقالت الشجرة آه ٠٠ فزع الرجل وأنتفض ، هم الزوار بالوقوف ، الحجرة محبوسة بأنفاس الزوار ، تآكلت كل الأوراق ٠

لم يكن الصبح جميلا ، كان الرجل ساخنا وعرقان ورعشة خفيفة تهز الجسد القوى ، كان يقرأ ويزرع الشجر ويزور اصحابه بلهجاتهم الغريبة عن البلد ، ويسافر ويعود ، يقول لهم : حين تمر الخيول تثير الغبار ، لا تقفلوا الشباك وأتركوا النهر يدخل ٠ ويروح فى النوم ٠

فى ليل لا نسمة هواء فيه دخل المسيرى الحجرة ، برجله اليمنى دخل ، غرز عصاه فى قلب الحجرة الطرى ووراءه الزوجه والعيال والاقارب والجيران ، والنباح لا ينقطع ، متشابك ، يرتدى المسيرى جلبابا أزرق اللون وجبة بيضاء اللون ، ويغطى رأسه بشال أبيض قال سيد ولم يسمعه أحد ـ ولا الكلمات خرجت من فمه ـ تحسسوا « المقروطة » تحت جلبابه · أطلقوا هم البخور ، رائحة المسك واللبان الذكر ، يا سيد ·· قم يا سيد ، رتقوا الأحجبة والأدعية فى داير السرير ·

تقلب سيد على الجنب الآخر ليواجه الحائط · قم يا سيد · هذه ليلة الحشرات والهوام وثعابين الجحور · قم يا سيد ·· ثم جلس المسيرى على الأرض وقال : هيه كلنا للأرض · من عينين واسعتين كان يتكلم ، هات يا جميلة يا زوج سيد رطلا من اللبن أو رطلين · شاربه كث وذقنه غزيرة الشعر ، حط الذباب على جدار الحجرة ولبد ، قال أتركونا ·

فى هدأة الليل تمدد عن آخره ونام على الأرض ، سقف بعروق خشب وسرير حديد بأعمدة رفيعة سوداء والرجل فوقه بأنفاس لاهثة · صورة زيتية لأسد وسيف ، وتحف صغيرة ونادرة ومكتبه · ها أنت ذا يا سيد فى حاجة لى · قارورة زجاجية زرقاء من خلالها كان سيد يشوف قواقع البحر وسحائب السماء والبلاد البعيدة ، قارورة زجاجية رفيعة طويلة زرقاء فوق المكتبة · ولسانك الطويل يا سيد ·· يا ساتر ·· مسكين ·· مريض ·· مسكين وعليل ·· نفخ بطنه وهو نائم لا قام ولا بص عليه لكنه نام وأخذ يخبط دماغه فى السرير ، حاول سيد النهوض اذ أقلقه شخير مصطنع وأنفاس كريهة ·· عليه الآن أن ينهض ·· ماذا تفعل يا مسيرى ؟ سأشفى لو ركبت قطار الدلتا أو الطائرة وذهبت لجراح أو طبيب حاول هز

السرير ، والآخر يضرب السرير برأسه ، هز السرير خاف المسيرى، هرول للشباك ·· الليل شجرة سوداء وعصافير بدون زقزقة ، تلفت اليه واقترب منه وضع ظهر يده على أنفه ، ما زال النفس ساخنا ، لا يقلقنى سوى عينى يا رجل · خير قال ثم أردف خير يا سيد لا تقلق زعق يا جميلة أين اللبن يا جميلة ؟ فهرولت اليه السيدة من الخارج ، بيدها اناء من الفخار ، أخذه بيديه الغليظتين ، حدق فى صدرها ثم ربت على كتفها بيد خشن ، وظل يشرب اللبن ويشرب ، وبعض اللبن يسقط من جانبى فمه على جبته ، ثم وضع الاناء خال تماما وتجشأ ، وقال أنا ســهران الليلة ، فى الصبح سيشفى ، علا صوت صرصور الليل ، علا الصوت حتى كاد أن يخرق الأذن ، نهض سيد قال أخرج يا مسيرى ·· أعرف علاجى — تقدم المسيرى منه فى غيظ ، ما زال يتكلم لكنه ليس قويا ، أعرف يا سيد لحظتى المناسبة ، نحن الآن بعيدا عن الناس والمقاهى ثم قال فى فحيح علاجك فى يدى أنا ، وزفر الليل أسرار الضغينة والخوف ولفح الصهد وجه المسيرى الذى جرى فى خطوتين واسعتين للمكتبة، هى الحاجز والحد ·· الأسوار واليقين ·

خبط رأسه فى المكتبة فشجت رأسه ، ما كان يقصد غير أن حافة المكتبة كالسكين ، وخشبها كالصلب ، صرخ يا امرأة ، فجاءت الزوجة قال البن ·· البن يا امرأة ، وضع قليلا منه على جبهته ، وجاء الأعمام والأبناء والخالات سألوا ما الخبر ؟ فأشار للمكتبة قائلا : هى الكتب ، كان يجلس على المقهى ويلجمه لا يأخذ المسيرى حقا ولا باطلا ، يقفل صاحب المقهى المذياع والتلفزيون ويلتفون حول سيد والأدهى يقولون له يا شيخ سيد ، فيعض المسيرى يده غيظا وحنقا ، ويلف البلد ليحكى للنساء عن البركات ، وتفسير المنام ، ويبلع البيض المسلوق ويقرص النساء فى أفخاذهن فيهرعن اليه بأرغفة الخبز وباللبن · هى الكتب ·· قال ، واتسعت عيناه ، الكتب التى ذهبت ببصره وستقتله احرقوا الكتب حتى يشفى سيد ،

احرقوا هذه اللعينة بأكملها ·· ان فى الكتب شياطين · لم تصدق زوجه · وأبالســة وأشــياء تعمى العيون ، وعندما ترددوا زعق حالا ·· حالا ·· تحرق الكتب ·· بجانب هذه الشجرة تحرق ·

أخذوا يحملون الكتب ، أياديهــم ثقيلــة وخفيفة ، يجرون ويهرولون بالكتب داخلين خارجين يتخبطون فى بعضهم ، كل هذه الكتب يا سيد ، بكت زوجه التى أشترى فى حياتها كل هذه الكتب كان ســيد يفرح بها ، ويجلس بجوار التمر حنة ويقرأ الشــعر والقصص ، تعطيه الشاى فيقول لها أطال الله عمرك يا جميلة ، يخبطون فى بعضهم يعرقون ، وطارت الروايات والكتب سيف بن ذى يزن وعنترة والجبرتى ، فيروز شاه ·

غاص به السرير ، أحس بالموت يشده لأسفل ، تمالك نفسه، أمسك بالوسادة متشبثا ، ألف ليلة وليلة ·· تاريخ القضاء · كتب ذات صور ملونة تطير فى السماء وبواخر كبيرة فى البحار ، الصناعات الحديثة والهلال وابنة البخيل والأغانى ·

رشوا الجاز فوق الكتب بعد أن وضعوها كوما تحت شجرة التمر حنة ، غمرها الجاز وسواد الليل · ضحك المسيرى وكان يزعق بفرح : الفرج قادم ، ثم أشعلت النار فأضاءت الشجرة واشتعلت الكتب واحترقت ، هربت من الكتب الأغانى والسيوف والألوان البديعة ، طارت الحروف وتحولت لرماد وحطت فوق الشجرة ، الدم الأحمر يقطر على الوجوه ويغمره حتى أحس بالموت ، الشجرة المســنجة لا يهتز لها ورق ولا تخرج منها رائحة ، الليل الدامى والنيران تأخذ بعيونهم تتراقص ظلالهم الهشة على أرض سوداء ، يمتد لهب النار يدخل من الشباك · ها هو ذا صهد النار يلفح وجه سيد فيسند بيده ويقوم ، يسند بيده ، ويقوم ، يسند بيده ،

للنار لون يعرفه ، ولشجرة التمر حنة مكان أدركه ، بينى وبينك حياة يا مسيرى ·· بينى وبينك موت · انخلع القلب حين أدرك أنها الكتب حين شم رائحة الكتب ، ناهض أنالك ، علت النار وأكلت أوراق الشجرة ، نزل من على سريره ، جرى للمكتبة ، فى كل الدنيا حروف ومطابع وصور ، تحسس ظهر المكتبة ، المفاتيح القديمة ، زعق بكل ما يستطيع : يا جميلة · وشوشت النار أعالى الشجر فطارت العصافير وليس غير رائحة ·

البـــــئر

قالت هى النحيلة : أن الليل قادم بعد النهار وعلى أن أستعد له ·· حتى لا يقتلنى النهار القادم بعد الليل ·

وكانت فى الحجرة وحيدة · لم تنعكس صورتها على المرآة فى الدولاب المقابل · البلاط أبيض وأسود وبارد · دست قدميها فى الشبشب ، وكانت ساهمة · هى بدون أمها كفرع بلا شجرة ·

تنظر فى البئر وتقول للبئر أحـك لى عن أيامى القـادمة ولا تذكرنى بسنواتى الماضية ، وتقول لشجرة التمر حنة أننى فى شوق للحناء · جلست أمام مرآة الدولاب فرأت نفسها فبكت ، لماذا يا رب أليس هناك غلبان يتزوجنى أنا الغلبانة التى لا أملك سوى أربعة جلاليب وفستانين لونهما أزرق وشبشب وحذاء جلد وحذاء بلاستيك وفى أذنى قرط فالصو · فتحت الشباك فامتلئت الحجرة بالنور وبالدفء ، ورتبت السرير ، وتمتمت بلا غناء بداية أغنية حزينة وسكتت ، وضعت اللحاف على الشـــباك ليتشمس ونفضت التراب عن المرتبة ، ثم أخذت المكنسة بيد حانية · لماذا لا أركب المكنســة وتطير بى حيث لا أعرف حيث الرجـال هناك

يعرفوننى · وكنست على مهل وبرفق ومن الراديو كانت أغنية تغنى ، وكانت هى ساهمة ·

أمس المرير فتحت بابى فدخلن على وجوه نحيلة صفراء ، فاتهن عمرهن وهن يبحثن عن عريس وبكين بكين ·· خرج الرجال للأراضى الغريبة ولما رجعوا أغنياء تركننا ·· تركننا ·

فى ليلة الأمس ظلت واحدة منهن تنتحب فى الحوش بجوار الشجرة وقالت أنه مدفون تحت الشجرة فمتى يطلع ؟

كانت أمها العجوز النحيلة تحكى لها عن طاقة القدر حين تفتح ، وعن الغيب الذى يحمل مالا نعرفه ، وفى كل عيد يخرجن معا فى أول شعاع للشمس ويذهبن للمقابر بالكعك والتمر والقروش ويبكين على الثلاثة الذين خطفهم الموت الأسود ذات ليال سوداء ·

وفى كل عام تقول الأم ـ وهى تمشط للابنة شعرها الخشن بمشط ذى أسنان خشب ـ يا ابنتى العام القادم سيحمل لنا الخير وابن الحلال الذى يتزوجك وتنجبين منه ولدا وأثنين وثلاثة ، الأول يحقق لك حج بيت الله ، والثانى يطعمك من رزقه ، والثالث يأخذك بين جناحيه · وتبكى البنت للحلم الجميل وتقول : اليس لكل فولة كيال ؟ وترى أنها شديدة الشبه بأمها السمراء ، ولكن أمها تزوجت من رجل فقير حتى مات ·

مات أبى ومات أخىوماتت أختى · أغلقت الراديو ،وانداحت الدموع من عينيها · قالت لها جارتها : ياجارتى الغلبـانة الرجال عبء ومصيبة ·· أنت فى خـــير حال ، لا تبكى حتى لا يضيع نور عينيك · فقالت لها : اننى أبرد وأسخن واننى وحيدة ·

وأخذت فى البكاء ·

جلست على كرسى منجد ومسحت أنفها فى كمهـــا وحملقت للصورة المعلقة على الحائط ، ألوانها زاهية ولكن ليس فى الصورة غير بيت وشجرة · لـماذا علقت أمى صورة ليس فيهـــا غير بيت وشجرة ·

ركزت على ركبتيها وأطلت عـــلى الشارع ، رأت الرجـــال والشبان ، واستغربت ، وقالت : كلهم أخرجـــوا جواز السـفر ليتركننى يا رب ابعث لى برجل ولن أقول لا حتى ولو كان مكوما فى قفة ·

هذه الدار الضيقة والحوش الواسع والذى به شـــجر يزهر ولا يثمر ·· وأنا ·· فى حاجـــة لك تزعق وتفرح حتى نضحك وننام بين فروع الشجر وفى الظل وتحط علينا اليمامات فتبيض ونسرق بيضها كى يفقس فى حجرنا الدافىء · حين يزعق سأسكت وتضحك أمى وتخرج ·

تخرج !! خرجت أمى وتأخرجت هى التى تشترى لى الطعام والشراب وتخدمنى بعينيها · طول النهـــار تضحك وتقـــول : الشمس جميلة لها ألف عين دافئة وأنت بنت طيبة وأنا أمك التى أحبك وأرعاك وأخاف عليك من الهواء ·

وطول الليل تبكى وتدعو ربها أن يرسل لابنتهـــا الرجل ، ولـماذا ياربى وهبتنا الحزن والألم ·· آه لو أفرح بابنتى · هـــل تبكين يا أمى ؟ عـــــلى ماذا يا ابنتى ، ما زال الطير يطـير والنهر يجرى ، وما زلنا لأننا جائعين ·· ربما كنت أحلم ·

ويمتد الحلم الباكى طول الليل البارد ·

رتبت الحجرة وجلست على السرير · ها هى صـورة أبيها ، وصورة أختها التى ماتت قبل أن تتزوج وصورة أخيهـــا ببذلتـه

العسكرية ، فى كل أكتوبر يحتفلون بذكراه المرة ٠

لو كان حيا لأتى بأصحابه ولعل واحدا منهم كان تزوجنى ٠ لما كنت أسير معك فى شوارعنا الضيقة كنت أشعر بالفرح ، وأمام كل دار أقمنا ساتر الطوب ليحمينا من اليهود ٠ كان يرسل لى من الجبهة الخطابات الجميلة ، يسلم على ، وكان يهدينى سلام زملاء الحرب ٠ ترى هل من كان سيتزوجنى قتل وحرق أيضا ؟٠٠

قالت مها بعد ن مسحت دمعها : أنظرى ٠٠ لن نظل مساكين ٠٠ ها هى مكافأة موت أخيك بها سنعيش ٠

وطارت طيور بيضاء وظلت تحوم حول البيت النهار والليل وكانت تنقر على الزجاج وكنا نخاف أن نفتح لها ٠

وبالمكافأة اشترينا « التليفزيون » و « البوتاجاز » ، وضعنا التليفزيون بالحجرة والبوتاجاز فى الحوش ٠ بتؤدة قامت لمعت شاشة التليفزيون بقطعة قماش ٠ انها تفعل الأشياء برتابة ، فكل شىء مرتب منذ أمس وأول أمس والشهر الفائت ، والأم حين تعود ترتمى على الحصيرة ، وتأخذ الابنة حقيبة الخضار وتخرج للحوش الواسع الذى به بوتوجاز وغسالة وطبلية فتطبخ وتعود بالأكل فيأكلن ويتحدثن قليلا ثم يبكين معا ولا تبوح الأم ٠

حين تطلع فوق السطح لتنشر الغسيل تكون فرحانة ، فرحانة بالشمس والدجاجات وبالديوك ، تنشر الغسيل وتجلس فوق القش ، وتنام على ظهرها فرحانة وتنام على بطنها فتدفىء ، وتغوص برأسها فى القش فترى الطيور البيضاء وترى النخيل يساقط منه البلح الأحمر ، والماء يفيض يفيض ٠ تخبط الرجل على ظهره فيضحك ويجرى وراءها بالمشوار ، تحلب العنزة وتقول العنزة ماء وتنط ٠ وتكلم الطير ويقول لها الطير أنت أجمل النساء

وأطيبهن ، وضوء الشمس يبهر العين فتضع ظهر يدها على عينيها · يارب السموات والأرض ابعثه لى حتى يخاف على ويربت على ظهرى وأنام فى حضنه وتفرح أمى ·· يارب حين ستموت أمى سأموت ·

يكون السطح واسعا ، والملابس المغسولة تهتز تهتز تطير ، وتطير فساتينها ·· من سيقع عليه فستانى ستقع عليه عينى وسيكون زوجى ، تبص للفستان الطائر · هو الفستان الأزرق ذو الزرار الأزرق يطير ويطير . خطفته الشمس ·· أين فستانى ·· يا فستانى ·· آه يا أمى لو فستانى أحمر ربما ما خطفته الشمس ·

خبطت على صدرها حين أذن للظهر ·· يا خرابى يا أمى ·· لماذا تأخرت ؟ يادنيتى السوداء ·· سأبيع نفسى اذن للعجوز التى تشترى الحلى وأقول لها أشترى فى وبيعى لقاء قرط أو سلسلة ، ضعينى فى الجوال وأتركينى أمام المقابر حتى أموت فى خوفى ، ربما يخرج أبى من بين المقابر ·· ربما يخرج ويربت على رأسى ويقول لى : لماذا أنت حزينة ·· أنا أعرف أنك مسكينة ·· أنا الفقير لم ترث منى سوى فقرى ، كنت حمالا وأمك كانت تبيع الفول حتى أصبح الفول غالى الثمن ويد أمك أكلها الروماتيزم ، يالك من مسكينة يا ابنتى ويا ابنة أمك ·

لكننى يا أبى أريد فقط أن تربت على رأسى وتقول هوووه ·· هوووه ·· فأنام وأنام ·

يا خرابى يا أمى اياك أن تغيبى · أذن للظهر وعاد الرجال لدورهم ·· تعالى يا أمى لأحكى لك كيف نظفت الحجرة ولمعت التليفزيون ونشرت الغسيل وملأت القلل ، ورميت الزبالة وطردت من الحجرة فارا وغيرت ملاءة السرير ولمعت زجاج الشباك ، وسكبت

الفنيك على المـاء بدورة الميـــــاه ، وكيف رميت الذرة للدجاجات ورميت التمرحنة من البئر ٠

دخلت الأم فشهقت البنت ٠ اذ دخلت أمهـــا جميلة الوجه الوجه صبية ؟ من أين هذا الجمال يا أمى ٠ هل خرجت حالا من رمال البحر ! ٠ أنت صبية ٠٠

بل وتضحكين !

قالت لها :

ـ تعالى ـ يا ابنتى ٠٠ انظرى ماذا أحضرت لك ، فحملقت فى حقيبة الخضار فلم تر شيئا ٠ فقالت أمها : أنظرى فى هذه الصرة فنظرت فرأت ملابسا حريرية وأقراطا ذهبية ٠٠ وخاتمين بفصين أخضرين وكردان بحجم الرقبة ومكحلة ٠ قامت أمها : أرسلها لكى الرجال وستعودين صغيرة وجميلة ٠ ثم وقع نظر المسكينة على قدمى أمها المعروقتين النحيلتين فجرت فزعة حيث السطح والشمس ، ونادت : يا شمسى ٠٠ أرم لى بفستانى الأزرق ٠٠ أرم لى بفستانى الأزرق ٠

فى عينيك العسليتين كل الفرح بالخـــلاء · أنت جـذلة لأن الشمس تحبك وترقد فى عينيك ، وفوق أهـدابك ذرات التراب خفيفة ·· خفيفة ··

لم يبق سوى شجرتين نصل بعدهما الى البئر · وسأملأ لك يا صفية دلوا من المـاء ، وحـــين تطلع الضـــفدعة فى الدلو لن نضربها ، ولن نقتلهـــا ولن ننزعج من جلدهـــا الخشن الأخضر ، ســـنضعها فى أكفنـــا ، ونتركها تركض فوق الحصى وســتكون سعيدة ·

قلت لها :

ـ أنا أحب الضفادع ·

جرت تسبقنى الى البئر · قدماها الحافيتان شـــقيتان فوق الأرض المتربة والحصى المدبب · ضفيرة شعرها الواحدة جميلة رغم أن شعرها ليس ناعما ، ولا أصفر ·

الخلاء رمل وزلط صغير ، وأشجار تشتاق المياه · نادت على وكانت خائفة :

ـ جبر ·

ـ صفية ·

صفية صوتها ناعم ، وحبوب ·· هى أخت وأم ·· ولم أجد لها صفة أخرى جميلة تليق بها ·

لا تخافى من هذه الحدأة فى السماء · لأن السماء بعيدة · وهى تبحث عن الكتاكيت لتأكلها ·· وتفترسها ، ولربما حطت فوق نخلة جدتى ·

جدتى تجلس فى وسعاية الدار المدهونة بالجير الأبيض ، تمسك عصا حطب فى يدها ·· جدتى الكسيحة تجلس تحت النخلة وتهتف على الحدآت بغيضة اللون : عالى ·· عالى ·· عالى ·

أبو قردان لونه أبيض ، تحول هذه اللحظة الى طائر رقيق· رقيق ·· اللون الأبيض فى السماء نقطة صغيرة فى بحر أزرق·· والغيطان خضراء ·· خضراء · وأمى تغوص فى جلبابها الأسود ، وهى سجينة حجرة أبى ·

شجرة البنسيانا الوحيدة أمام دارنا تزهر فى الربيع زهورا حمراء ، نأكلها حين تتساقط ، مذاقها ليس مرا ·

آه من تلك الزهور الحمراء التى نعشقها ·

أمام الدار شجرة وحيدة ، يأتى عندها الصبية يلعبون ··· ويقذفونها بالطوب حتى تسقط الزهور ، لا يزعق أبى فنوافذ دارنا

ليست زجاجا وبابنا ليس حديدا ·· ولكن جدتى تصرخ لأنهـــا كسيحة ويغنى العيال :

ياطالع الشجرة

هات لى معاك بقرة

تحلب وتسقينى

بالمعلقة الصينى

ساعة الأصيل ، وكانت الدنيا تموت فى حر النهار انطلقت كالسهم من باب دارنا · وضعت صفية كفها فوق صدرى ، وقفت الهث · فى يدها اليمنى قطعة من العسلية ·· وفى اليد اليسرى غويشة متآكلة ·· صفية يداها نحيفتان · ذلك لأنها أيضا نحيفة·

من صغرى أحب صفية ·· تأتى من الجانب الشرقى ، تمر من فوق الكوبرى الضيق ـ الذى صنعه الفـــلاحون بشجرهم ـ تترك النهر وراء ظهرها وتأتى ماشية المســـافات الطويلة ، تأتى عرقانة ولكنها تأتى كالجنية تنط وتغنى وترقص ·

بدر صغير نحيف يأتى من وراء الكوبرى · أجرى اليهـــا تشير لى فى خوف الى جـــدتى · جدتى تحرم لعب الصبيان مـع البنات ، وتحرم لعبى مع صـــفية · أمى لا تكره صـفية · تقول جدتى :

ـ نجس ·

أنتظرها أنا فى الوسعاية ، وأمى فى الحجرة المظلمة الضيقة تقعى تحت رجلى أبى العليل بلا جدوى ·

جدتى ضربت صفية ذات مرة ـ وفجأة ـ بعصا غليظة ، هوت

العصا على أذن صفية · واحمرت الأذن فى الحـــال ، وتضخمت ، وخاصمتنى صفية يومين بلا ذنب ·

أنا أحب أمى · وصـــــفية وأنا نحب الزهور الحمراء التى نلوكها وتملأ بطوننا ·

جلس رجل عجوز غلبان فوق الكوبرى الصغير وأخـذ يغنى كأن لا أحد يسمعه ولا حتى السمك فى النهر الصغير :

عطشان يا صبايا

دلونى على السبيل

ضحكت صفية كثيرا لأن النهر كان يجرى فيه المـاء ·

كان الرجل العجوز شديد السمرة وكان نحيفـا ·· وكان يشبه أبى وأبا صفية · ولأن الخلاء واسع نرسم فوق الأرض حولنا دائرة واسعة ·· واسعة ·· نشير اليها :

ـ هذه دار ·

نجلس فيها ، نأتى بأربعة أحجـار ونسـميها حجرات ، وفى الدار كل ما حولنا يصبح لنا ·· الغيطان ، والنهر ، والسماء · ولا يحدث أن أكون عليـــلا وتحملنى حتى أبول ولا أسبها ·· ولا أضربها كالوحوش · هى أيضا رءوفة معى ·· تسمعنى وتشترى أكلنا بنقود بســـيطة وتأتى بالمـاء النظيف ونستحم كـل يوم · صفية لا تسرق منى النقود · ولا تكذب على ·· ولا تلعب لعبـــة الدار مع صبى آخر ·

نصفق ·· يأتى العيـــال من كل شق : صبية نحـاف ·· عيونهم متقدة ·· أذكياء ·· كلهم يهربون من جداتهم ·

والشمس حلوة جميلة نتمرغ فيها ، وتمرح الكلاب الوليفة ويرفرف أبو قردان ناصع البياض فى السماء الصافية شديدة الزرقة ٠

الزهور الحمراء طعمها فى الفم لذيذ ٠٠ لذيذ ٠

ياطالع الشجرة

هات لى معاك بقرة

تحلب وتسقينى

بالمعلقة الصينى

أيام القطن نقتل الدودة ٠ ونجمع القطن الأبيض ٠ ونحمل الحطب ٠ وأعود مع صفية كل غروب فرحين بالقروش التى هى أجرنا ٠ تضربنى جدتى حتى أخرج آخر مليم من القروش القليلة٠ أمى تبكى بلا صوت ويسكن فى رأسها صداع دائم ٠ وأبى القعيد يرفع يده الى الله طالبا الهداية والرزق الحلال ٠ والحدأة فوق النخلة وجدتى تحت النخلة ، والكتاكيت ذات الأرجل الصفراء صغيرة صغيرة ٠٠ تحب الشمس ولا تدرك بعد أن الحدأة عدوتها ولا تحتاج الى جدتى الكسيحة ، انما تحتاج لى أنا الذى بيدى (نبلة) وفى جيبى زلط ٠

لا تتركينى ياصفية ٠ أنا أحب أباك الذى يحبك ويشترى لك فى كل عام جلباب زاهى الألوان به ورود حمراء وزرقاء وخضراء ، وخطوط سوداء ، ويشترى لك غويشة جديدة ٠

أريد أن ألعب معك بين البنايات والأزقة ، وأترك الخلاء ، هل سمعت عن ثعبان يسكن بجوار البئر ، قالت نعم ، ولكنه يرقد هناك لفأر كبير يريد التهامه ، قلت نعم لكنه سيقتلنا لو قربنا منه٠

انها حواديت ٠

ضمتنى أمى الى حضنها ، التصقت بثدييها الطيبين ،أنفاسها الدافئة كانت تحمينى من مخاوف الليل ٠

قالت :

ـ نم واحلم انك سعيد ٠

هى تحمل بول أبى ، وتكنس تحته ٠ هى مريضة ، ولكن لمن ستشكو ، وهى التى تلبس الجلباب الأسود ٠٠ وأبى هو القعيد ٠

ـ يا صفية ٠

كانت الشمس حامية ، وكانت السماء واسعة ٠٠ وكنا لا نخاف من الثعابين ولا البئر العميقة ٠

حدثتنى عن قطتها البيضاء ، وجدتها ـ صفية ـ بجانب كوم الزبالة ٠ كانت القطة آنذاك صغيرة صغيرة ٠ لا تقدر على فتح عينيها ٠ وذيلها كان تحتها منكمشا ٠ ثم أخذت صفية تربى القطة البيضاء ٠٠ تربيها تربيها ٠٠ حتى كبرت وكبرت ٠ وأصبحت بذيل جميل ، وعينين خضراوين جريئتين تقتل كل الفئران المتوحشة ٠ وأصبح للقطة البيضاء عديدا من القطط البيضاء والسوداء ٠٠ وذات البقع البيضاء والسوداء ٠

جلست حزينا فوق التراب ٠٠ وكانت رجلى معفرة ٠

صفية تعرف سر حزنى ٠

أعطتنى يوما قطة صغيرة بيضاء ـ مثل أمها تماما ـ كنت

أطعمها خبزا مبلولا · خنقت جدتى القطة البيضاء ، وبعثتنى لأرميها فدفنتها بجانب الكوبرى وبكيت عليها كثيرا كثيرا ·

قال أبى فى المساء أن القطط نجاسة ·· قال : يا ولدى صل ·

قالت صفية :

أبى صياد

له شباك

وله قارب

وهى تأكل السمك · وفى أيام الصيف يسيرون بجانب النهر يأكلون كيزان الذرة الساخنة ·

صفية ··· يا صفية ·

الشمس الحمراء تصبغ العالم لونا زاهيا ·· وأنت الرقيقة الرقيقة لم تهربى منى ·

من النهر يصطاد أبوك السمك · وأنا كان عندى (سنارة) كسرتها جدتى فوقى ·· ولا زلت محتفظا بـ (الشص) فى صندوق صغير ·

أعطتنى قطعة صغيرة من العسلية بيدها اللطيفة ·

حول البئر حشائش خضراء شيطانية ، كان الدلو الصدىء فى قلب البئر ، جذبناه من الحبل كما نفعل دائما · الشمس تذهب بعيدا ، أخرجنا الدلو من الماء ·· صرخت صفية فزعة : فى الدلو فأر كبير ميت · قتله الثعبان · الثعبان فى هذه الحشائش

وفى هذا الخلاء · اياك ياصفية والشـــقوق ·· رمينـا الدلو ·· جرينا ·· جرينا ·

الكوبرى الصغير كأنما يتأرجح ، يحملنا الى الشط الآخر · هذا الشط المشمس · الشمس تختفى لتخرج مرة أخرى ·

هناك شوارع فسيحة ودور يعشقها الضوء ·

وهناك ستكون صفية دائما ·· دائما ··

فى عينى صـــفية انسكبت شمس حمراء ، وطـائر أبيض يرفرف فى السماء سعيدا بهذه الرحابة ·· ويغنى بلا توقف ·

قرط فضى صـــغير

كانت الحقول خضراء ، والهواء ساخنا ٠

وضع الولد يده السمراء الصغيرة فوق أذنه اليمنى : قرط وخرم فى الأذن ٠ الريح تنقل صوت الأغانى والمواويل والصراخ ٠

اهتز القرط ٠

واهتز سعف النخلة ٠ النخلة وحيدة ، عالية ٠٠ هو تحتها ٠٠ وهى تهتز فى السماء ، وتلتمع فى الشمس ، وتستحم بمـــاء المطر ، والعيـــال يلعبون ، ويضربون الأرض بأقدامهم ، يثـيرون التراب فى العيون ، والولد يرتعب من العيـــال الذين يحبهـم ، والذين يعاكســونه ، ويرمونه بالحجـارة ٠ ويرمونه للوحـــدة والسكون ٠

فى الليل تنام العصافير ، فى الأعشاش الصمت والدفء ٠٠ وتضيىء عيون القطط ، ويبث صرصور الليل بأذاه فى الأذن ٠

فى الضحى يجلس الولد ملاصقا لباب الدار ، لا يبرحـــه ،

ويتابع الغبار ·· الأرجل الحافية ·· القطط ·· ينظر لعين الشمس المتوهجة ، سناها يكاد يذهب بالبصر ، تدمع عيناه ·· تحمر الدنيا وثمة بريق بالقرط الفضى ·

رمت الشجرة بظلها فوق الأرض ، فرح العيال بالظل ورموا الطاقيات ·· وقفز الولد فوق الولد ·· والبنت شدت البنت من ضفيرتها ·

وقعت فوق رأسه ورقة شجرة خضراء ·· أنزل يده من على القرط ، التمعت عيناه السوداوان ببريق حلو ·· قال :

ـ العب معكم ؟

ضحك منه العيال ·· تناثروا فى الساحة الواسعة المشمسة ·· تناثروا ألوانا بيضاء ·· وزرقاء ، وطارت الكرة لأعلى ، لم تصل للشمس الكبيرة التى ضايقت الولد الصغير الأسمر · حين يراه الناس فى الحارة ·· والمتجر ·· والغيط ·· والملعب يقولون :

ـ ابن أمه ·

ويضحكون مشيرين الى قرطه المتدلى من أذنه ·

فيخاف الحارة ·· والمتجر ·· والملعب ·

هو المولود ذات شتاء لم يحبه ·· ذات برد لم يألفه ··ذات صباح لم يهجره ·· هو الذى انتظره أبوه عشر سنوات ·· انتظره كل الليالى والأصباح ·

جاء ·

جاء بعد أن شربت أمه المر ·· وشالت فى شعرها التميمة·· وكنست الأضرحة · جاء قطعة لحم حية ·

ـ المرأة أنجبت ·

انتفض الأب من العشة الواطئة تحت الشجرة ·· سـابق الريح ·· والأرض ·· داست قدماه الطين الطـرى ·· فتحت له الزروع صدرها ·· وزفرت له الرياحين ·· وملأت رائحة النارنج كل الدنيا ·· تخبطت قدماه فى الشجيرات الصغيرة ·· تعثر ·· وحين انكفأ على الأرض وقعت عيناه على قرط فضى صغير ·· يطل من الأرض فى فرح ·· وترقص نقوشه فى عين الشمس ··وتبرق فى عين الأب ·· مد الذراع ·· وارتعشت الأصـابع العجوز ·· واحتضنته :

قرط ·· فضى ·· صغير صغير ·

انتهت الشمعات الثلاث ·· انتهت قطعا صغيرة فى الصينية النحاس الكبيرة ، وظل الأبريق الملون مبتلا بالمـاء ·· رشوا الملح ·· وأطلقوا البخور ·· وغنى الأطفـال ·· والنساء ·· وأكلوا التمر ·· والفول السودانى ·· والحمص ·· وتفجر الثدى باللبن·

بعد السبوع خرق الأب أذن الطفل ·

ـ من عين الحاسد ·

بكى الطفل وصرخ ·· ثم التئم الجـرح ·· فرح الطفـل بالقرط ·· وفرحت الأم بالطفل وشرب لبنها ·· ولبن المـاعز ·· والجاموسة ·· وأكل الجبن القريش ·· وأكل التمر ·· وجرى حيث الترعة ليلعب ·· يجرى وراء الأوز ·· ويهتف للحمام :

ـ يا حمام ·

ـ يفرح بالشمس ، يجرى فى الوســـعاية بالفـــائلة ذات النصف كم ·· ينام فى الغيط تحت شجرة الجميز ·· ويقوم ·· وبقدمين حافيتين يتسلق النخلة حتى منتصـــفها ويفرح ، للنخلة بلح وقحف وليف وسعف · للنخلة حب كبير يملأ القلب الصغير· يحضن النخلة ويحلم أن يصعد للتمر ، ثم ينزل ·· ويعود ساحبا بيده الصغيرة الثور الكبير ، يمشى الثور على مهل ، وأحيانا يحك بوزه فى رأس الولد ·· فيضحك الولد ، وتفتـــح الأم باب الدار وتستقبل الولد فى سرور ·

ـ ابن أمه ·· ابن أمه ·

ـ ها هو البنت ·· ها هو البنت ·

يلوذ بالدار ·

يمسك تمرة النخلة ، ولمـا يرشق أربعة عيدان من الكبريت كالأرجل فى بطن البلحة تصير جملا ·· جملا أحمر ·· يركبه ·· يمضى به ·· ويجرى ·· يجرى ·· هو الجمل العالى الذى لا يبلغه العيال ·

يجرى فى حرية ·· يجلس على العشب ·· يمدد رجليه عن آخرهما ·· يميل بجذعه للخلف ·· ويستند على ذراعيه ·

شمس الأصيل بحر من القمح الذهب ·· والسماء صافية·· وللدفء أمان ، تحط العصافير وتقوم ، عيناه الصغيرتان تدوران فى السماء الواسعة ·· هل من طير جميـــل فى رقبتـــه قرط من فضة ·· أو فى رجله حبل من نحاس ؟

خلع الطاقية الصوف · أذنان جميلتان فى أحديهما قرط من فضة ·· هو ذو الوجه الأسمر والشعر الأكرت لا يحبه العيال··

ويعاكسونه ، ولا يلعبون معه · زحف الى حافة الترعة ·· جلس بين زرع « ذيل القط » والورود الصفراء · نظر الى ماء الترعة الجارى ·· وجه مستدير ·· قرط · فم مثل البندقة ·

فكر أن يلقى القرط فى الماء الجارى ·

وجه ·

قرط ·

سماء ·

ويتخلص منه ·· ومن شر العيال ·

يتخلص من خجله قرطه ·

ألحت عليه فكرة القاء القرط · ويمضى به الماء الى حيث لا يعرف هو ·· ولا أبوه ولا أمه ·

وهم الذين يحبون القرط ·

وهو الذى ·· الذى ··

ذات مساء ·· ليله ثقيل ·· خلع القرط من أذنه ، وكان القلب يدق باضطراب ، واليد ترتعش ، والليل يبعث بخيالاته المخيفة وغيلانه وعفاريته ، والقمر يخونه ·

هذا المساء ·· خلعه ·· اذ كان صرصور الليل يصرخ فى أذنه :

أرم به ·· أرم به ·· أرم به ·

ومن الشباك كان سيرمى به ·· الى التراب ·· من حيث جاء ·· من حيث ينبت الزرع ·· ويدفن البشر ·· وتبنى العمائر،

وحين هم بالقائه لمست أصابعه الرقيقة النقوش الدقيقة .. رجع .. اقترب من مصباح الجاز نمرة عشرة .. القرط .. والضـــوء .. والعيون تحملق .

ـ ياالله نقوش جميلة .. رجل .. رجل .

تمر يده بحنان على القرط .. عـــلى النقوش .. همس له القرط :

يا صاحبى انى حفظتك فأحبنى .. انى أحببتك فأحبنى .. يا صاحبى .

وظل يبحلق فيه ليلة طويلة .. ثم نام باسما .

هم الذين يحبون القرط .. وهو الذى أحبه .

وضع يده على قرطه .

ماء .. ووجه .

سقطت دمعة من عينه .. ارتج المـاء فى الترعة ، وصـــنع دوائر صغيرة .. صغيرة ..

فى المـاء : نخلة .. وسحب .. وقرط .

فرح الولد ورأى السماء مليئة بالطيور الأليفة .. ورأى أباه من بعيد .. ورأى الحمار .. فقام .. فتح ذراعه لأبيه وجرى فى عزم .

وكان القرط يهتز بشدة .

أرض واسعة خضراء .. عشب .. وزرع .. سماء ذهبيـة

صافية ·· أرجل حافية تنقش أثرا على الطين ·· وقرط يمرح فى فضته الدافئة ·

وبنت تمرح فى أنوثتها الصغيرة · ها هى البنت التى كانت تلعب مع الصبيان برجليهـــا الحافيتين ، ها هى قـد كبرت وفى صدرها نبتت برتقالتان صغيرتان ، وشـــعرها تمشطه وتلمه فى جديلتين ، وتحنى رجلها ·· وتلبس الشبشب ، وتضحك للولد·· وتمر كالنسمة من أمام الشباك ·

وحط فى القلب دفء ·· وفى العيون حنان ·· وبالجســـد الرغبة والارتعاشة ·· وكيف تكون صـبيا قويا يمشى فى القرى والحوارى وباذنك هذا القرط ؟

أخفت الصبية وجهها الخمرى بالطرحـة السوداء ، وانهمرت فى بكاء طفولى ·· فتغير الهواء ·· وانتهى جمع البرتقال ··وبكت سارة للخليل ·· ووقفت الشمس فى مكانهـــا ·· وهبت ريـح الشمال ·· وبات الصبى حزينا ·

ـ يا هذه المندرة الطين انهـــارى فوق رأسى ·· أدفنينى تحتك ·

ورأى البدر فى السماء ·· والهدوء فى السماء ·

تحسس القرط ·· هذه النقوش الدقيقة عم تحكى ؟ هـذه النقوش الرقيقة الرقيقة عم تحكى ؟

تحسس القرط ·

هذه النقوش الحبيبة بما تهمس للأذن ؟

أمسك به ·· والحب يمنعه عن الفراق · ولم يوافق أبوالبنت

الحمرية ·· ولا أم البنت الحمرية ·· ولا خالها ·· ولا عمها ·· ولا التجار ·· ولا رجال الصاغة ·

وحزن صاحب القرط الفضى ·

لابد أن لحظة خرم الأذن كانت قاسية ، صرخ الطفل ، والأب وزع « السوبيا » ·

لا هو تشبه بالنساء ، ولا هو اشتراه ، لابد أنه صرخ ·· وبكى ·· وأخذ الثدى فى فمه ·· لكنه أحبه ·

القرط ·· الصراخ ·· الحب ·· النقوش الدقيقة ·· هو فى الأذن والقلب ·· هو يقترب فى طيبة ، وهم يهربون ساخرين ، تنظر له العيون بشـــفقة ، والشفاه بالمصمصات والبنت الحمرية بالدموع ·· وهو الصبى الذى أحب الأرض المعشوشبة ·· البحر· الزرع ·· الفأس ·· رائحة الخبز ·· البرتقـــال · وهم الذين يضحكون فى سخرية ·

سهر الأب العجوز يفكر ·

سهرت الأم العجوز تبكى ·

قال الأب العجوز :

ـ كبرت ياولدى ·· اخلع القرط ·

بكت العجوز ·

ـ ياولدى ·

البيوت ناصعة البياض ·· والنهر شديد الجريان ·

وقف الولد شامخا ·· وراءه البيوت ·· والنهر ·· والابل ·· والنخيل ·· والقباب ·· نظر فى عين الشمس ·· لم يجفل ، فقالت له سر الحيـــــاة : اذ توالدت الأسماك ·· وأنجبت هـاجر للخليل ·· وسقط الندى ·· وخرج يونس من بطن الحوت ·

هو قسوة الضوء ·· وحنان الدفء ·

أمسك بالقرط الذى أحبه ·· قال فى وجد :

ـ أحب نقوشه ·

التمع القرط الفضى ·· وبانت نقوشه الدقيقة ·

فى أذن الولد قرط ·· ومنقوش على القرط رجل ·· والرجل يمسك رمحا ·

الفهـــرس

١ ـ القبيح والوردة

٢ ـ البيوت

٣ ـ الخميس

٤ ـ اللعبة والخاتم

٥ ـ النهر

٦ ـ العنب

٧ ـ الموت والعصافير

٨ ـ الحارس

٩ ـ فى الجنينة

١٠ ـ الرحيل مجدول من الخوص

١١ ـ الحريق

١٢ ـ البئر

١٣ ـ هذا يوم طيب للحياة

١٤ ـ قرط فضى صغير

القصة المصرية القصيرة

تصدرها :

دار شهدى للطبع والنشر

يشرف على اعدادها :

ابراهيم عبد المجيد

محمود الوردانى

المحرر المسئول :

رءوف مسعد

المراسلات :

دار شهدى للطبع والنشر
١٦ شارع اسماعيل محمد
الزمالك ـ القاهرة

الـكتاب القادم :

« الضحى العالى »

للـكاتب :

يوسف أبو رية

رقم الايداع ١٩٨٤/٤١٣٠

مطبعة أطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٧٤٧٧٩٧ ـ القاهرة

القبيح والوردة

مازلنا نتمسك برهافة قارىء ، يبحث عن سلوان وعن برهان . فالسلوان نقدمه فى هذه المجموعه التى يكتنفها بعض الأسى وظل من وحشة وتفرد

والبرهان نحاول أن نضعه بين يديه لنقول له إن هناك من يواصل الكتابة » وحرفة الأدب « بذلك الصبر الذى عمل به الوراقون القدماء ، ينحنون على أوراقهم لايريمون بينما الآخرون ينهلون بشراهة من فضلات الحياة

• • •

كان استقبال الكتاب الأول » السير فى الحديقة ليلاً لمحمود الوردانى ، قبل اكتشاف مخطوطة منسية .. احتفالياً ومشجعاً ، مثل طقس الختان لطفل ينخرط فى مدارج الرجال

يكفينا أننا ساهمنا فى إحياء طقس أهيل عليه تراب الفظاظة والابتذال

» المحرر «